حُصُولُ المأمُولِ

في شرح ثَلاثَةِ الأصُول

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـــ ٢٠١٤م

حُصُولُ المأمُولِ

في شرح ثَلاثَةِ الأُصُول

تأليف

عَبْد الله بن صَالِح الفَوْزان

دار ابن الجوزي





مقدمة الطبعة الجديدة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمَّد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أما بعد:

فهذه هي الطبعة الخامسة لكتابي: «**حصول المأمول بشرح ثلاثة الأصول**»، وهي الأولى التي تقوم بها دار ابن الجوزي، وقد قرأت الكتاب، وزدت بعض الفوائد في الشرح وفي الحاشية، وكذا في بعض مواضع النقص مما دعَت إليه الحاجة، واللهَ أسألُ أن يديم النفع به، إنه سميع قريب مجيب.

كتبه المؤلف

في ١٤٣٤/١٢/٢١هـ

مقدِّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

أما بعد: فإن رسالة «**ثلاثة الأصول وأدلَّتها**»[(١)]، للشيخ المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة موجزة جامعة في موضوع: توحيد الربوبية، والألوهية، والولاء والبراء، وغير ذلك من المسائل المتعلِّقة بعلم التوحيد، الذي هو أشرف العلوم وأجلُّها قدرًا، كتبها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقرونة بالدليل بأسلوب سهل ميسَّر لكل قارئ؛ فأقبل الناس عليها حفظًا وتدريسًا؛ لأنها كُتبت بقلم عالِم جليل من علماء الإسلام، نَهَج منهج السلف الصالح، داعيًا إلى التوحيد، ونبذِ البدع والخرافات، وتنقيةِ الإسلام مما عَلِقَ به من أوهام.

ويظهر ذلك جليًّا في معظم مؤلفات الشيخ ورسائله، فجاءت

(١) هذا العنوان هو أول ما عُنْوِنَتْ به هذه الرسالة في طباعتها الأولى، ومنها على سبيل المثال مجيء الرسالة بهذا العنوان ص(٩٥) في مجموع طُبع بدار المعارف في مصر بتصحيح ومراجعة أحمد محمد شاكر وعلي محمد شاكر، وقال جامعها محمد النجار: إنه فرغ من جمعها في ١٣١٦/٣/٢٤هـ، ولها عناوين أخرى، فراجع: «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» للدكتور صالح العبود ص(١٣٢) لكن الذي يظهر أن «ثلاثة الأصول» تختلف عن «الأصول الثلاثة» لأن الثانية مختصرة جدًا، كما جاء في «مجموعة التوحيد» ص(٢٦٢). وانظر: «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ صالح آل الشيخ ص(١١).

هذه الرسالة خلاصة وافية لمباحث مهمة، لا يستغني عنها المسلم، ليبني دينه على أُسس سليمة وقواعد صحيحة؛ فيجني ثمرات ذلك: سعادة في الدنيا، وفلاحًا في الدار الآخرة.

لذا رأيت أن أكتبَ عليها شرحًا متوسطًا في تفسير آياتها وشرح أحاديثها وتوضيح مسائلها إسهامًا في تسهيل الاستفادة منها، والتشجيع على حفظها وفهمها، بعد أن قمت بشرحها للطلبة في المسجد بحمد الله تعالى، وسمَّيته: «**حصول المأمول في شرح ثلاثة الأصول**».

وقد اعتمدت على نسخة الأصول التي عليها حاشية الشيخ: عبد الرحمٰن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنها مطابقة لما في مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي قوبلت على عدة نسخ، أهمُّها مخطوطة المكتبة السعودية بالرياض، كما قال مصحِّحوها، وهي في «قسم العقيدة والآداب الإسلامية» ص(١٨٣) من مؤلفات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وختامًا أسألُ الله تعالى أن يُجزل الأجر والثواب لمؤلِّفها، وكل من أسهم في توضيح العقيدة وبيان البدع والتحذير منها، كما أسأله ـ وهو أكرم مسؤول ـ أن يجعل عملي صالحًا، ولوجهه خالصًا، ولعباده نافعًا، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه
عبد الله بن صالح الفوزان
مساء الجمعة ١٤١٧/١٢/١٩هـ في بريدة
صندوق البريد: ٢٣٤٨
الرمز البريدي: ٥١٤٥١
alfuzan.net@gmail.com

ترجمة موجزة لمؤلف الرسالة[١]

هو الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي (من المشارفة أحد فروع الوهبة) من قبيلة تميم.

وُلد الشيخ ـ عليه رحمة الله ـ عام ١١١٥هـ في بلدة العُيينة، وتلقى فيها علومه الأولية، فتعلَّم القرآن وحَفِظَه عن ظهر قلب قبل بلوغه عشر سنين، وكان حادَّ الفهم وقّاد الذهن ذكيَّ القلب سريع الحفظ، واجتمع له مع هذه المَلَكات وراثة علمية ووسط ديني صالح تربَّى فيه.

فَجَدُّه كان عالمًا جليلًا، ووالده قاضي العيينة؛ فأخذ عن مشايخ بلده، ثم رحل في طلب العلم إلى الحجاز واليمن والبصرة، فحاز علومًا وحَفِظَ متونًا، وقرأ كثيرًا من كتب الحديث والتفسير والأصول، وعُنِيَ عناية خاصة بمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وتأثر بأفكارهما واستنار بآرائهما، مما كان له أثر واضح على دعوة الشيخ ومنهجه.

عاد الشيخ من هذه الرحلات العلمية المباركة إلى حريملاء حيث كان والده قد انتقل إليها من العيينة لخلاف بينه وبين أميرها، فَدَرَسَ على والده في حريملاء، ودعا إلى توحيد الله تعالى، وبيَّن بطلان ما عليه عبَّاد القبور.

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة من عدة مصادر، وقد ترجم للشيخ كثيرون. فانظر: «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» للدكتور صالح العبود ص(٦٥).

ولمَّا توفي والده عام ١١٥٣هـ أعلن دعوته، إلا أنه ما لبث أن قرر أن (حريملاء) لا تصلح أن تكون منطلقًا للدعوة، فانتقل منها فيما يقارب عام ١١٥٥هـ إلى (العيينة) فناصره أميرها عثمان بن معمر أول الأمر، ثم خذله؛ فانتقل الشيخ إلى (الدرعية) وهيأ الله له الأمير محمد بن سعود، فقويت دعوته، فأخذ ينشر التوحيد، ويجاهد في إحياء السُّنَّة وإماتة البدعة، ويدرِّس العلوم النافعة، ويؤلف الكتب على طريقة السلف الصالح، وأخذ عنه كثيرون، وخَلَّفَ من التلاميذ الكبار من نفع الله بهم الإسلام وأهله كما نفع به.

وقد مدَّ الله تعالى في عمر الشيخ فعاش في (الدرعية) بعد انتقاله إليها قرابة خمسين عامًا، قضاها في الدعوة إلى الله وتطبيق مبادئها بهدم القباب المقامة على القبور، وقطع الأشجار التي يتبرك بها الناس، وإقامة الحدود، والجهاد، والعمل على نشر الدعوة، فقرَّت عينه بانتصار كلمة الحق وشمولها أجزاء الجزيرة.

وقد وافته منيته يوم الاثنين آخر شهر شوال سنة ١٢٠٦هـ، وكان عمره نحو اثنتين وتسعين سنة، ومات ولم يخلِّف دينارًا ولا درهمًا، فلم يُفَرَّق بين ورثته مال ولم يُقْسَم.

رحِمَ الله الشيخَ محمد بن عبد الوهاب، وجزاه عن الإسلام والمسلمين الجزاء الأوفى.



بسم الله الرحمن الرحيم

بدأ المصنف هذه الرسالة بالبسملة اقتداء بكتاب الله تعالى، وتأسيًا بالنبي ﷺ، فإنه كان يبدأ كُتبه بالبسملة، فقد ورد في «صحيح البخاري» في كتاب بدء الوحي: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هِرَقل عظيم الروم...**»[1].

أما الأحاديث القولية في مسألة البسملة؛ كحديث: «**كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر**»، فهي أحاديث ضعَّفها العلماء[2].

والبدء بالبسملة يدلُّ عليه أمران:

الأول: كتاب الله تعالى حيث بُدئ بالبسملة.

والثاني: ما كان يصنعه النبي ﷺ في كتاباته إلى الملوك.

وقوله: (بسم الله)، هذا جار ومجرور متعلِّق بمحذوف يقدَّر متأخِّرًا، والقاعدة في متعلَّق الجار والمجرور أنه يقدَّر متقدِّمًا، هذا هو الأصل، لكن في البسملة يقدَّر متأخرًا؛ ليحصل التبرك بالبدء

---

(١) «صحيح البخاري» (٧)، «صحيح مسلم» (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا الحديث أخرجه الخطيب في «الجامع» (٢/٦٩، ٧٠)، والسبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» المقدمة ص(١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف جدًّا؛ لأنه من رواية أحمد بن محمد بن عمران المعروف بابن الجندي. قال الخطيب في «تاريخه» (٥/٧٧): (كان يضعف في روايته ويطعن عليه في مذهبه)؛ أي: في التشيع، وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة المرفوعة» (١/٣٣): (شيعي اتهمه ابن الجوزي بالوضع).اهـ.

والحديث ضعفه الحافظ ابن حجر رحمه الله على ما نقله صاحب «الفتوحات الربانية» (٣/٢٩٠).

. . . .

بالبسملة، وأما نوعية المقدر فإنه يقدر بما يناسب المقام، فالذي يقرأ يكون التقدير: (بسم الله أقرأ)، والذي يكتب إذا قال: (بسم الله الرحمٰن الرحيم)؛ يعني: بسم الله أكتب، وعلى هذا يقاس باقي الأفعال، فإذا قال: (بسم الله أكتب)؛ حصلت البداءة ببسم الله، ولكن لو قال: (أكتب بسم الله)؛ لصارت البداءة بغير البسملة؛ لهذا يقدر المتعلَّق متأخرًا، والمراد باسم الله هنا: كل اسم من أسماء الله تعالى، ولفظ (الله) اسم من أسماء الله تعالى الخاصة به، ومعناه: المألوه حبًّا وتعظيمًا.

وقوله: **(الرحمٰن)**: هذا اسم من أسماء الله الخاصة به، ومعناه: ذو الرحمة الواسعة.

وقوله: **(الرحيم)**: هذا اسم من أسماء الله، ومعناه: موصل رحمته إلى من يشاء من عباده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (الرحمٰن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ قط: رحمٰن بهم. فعُلم أن رحمٰن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته)[١].

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

اِعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ ....

قوله: **(اعلم رحمك الله)**، هذا دعاء من المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ لك أيها القارئ، أو المستمع، وهو يدل على محبته لك وشفقته عليك، وأنه راغب في حصول الخير لك، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يستعمل مثل هذه العبارة كثيرًا، يقول: (اعلم أرشدك الله لطاعته)، (أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة).

وكلمة **(اعلم)** يؤتى بها من باب التنبيه، وحثِّ السامع على أن يُصغي لما سيقال، فهي أمر بتحصيل العلم والتهيؤ لما سيلقى إليه من العلوم.

ولهذا ينبغي للمتكلم إذا تحدَّث أمام الناس أن يستعمل معهم بين حين وآخر العبارات التي تشدُّ أذهانهم معه؛ لأن السامع بطبيعته يحتاج إلى ما يحرك ذهنه ويثير انتباهه، ولهذا كان الرسول ﷺ يطرح السؤال وأسلوب العرض بين حين وآخر على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»**، **«أتدرون ماذا قال ربكم؟»**، **«أتدرون ما الغيبة؟»**، والقصد من هذا أن السامعين يستعدُّون لسماع ما سيقال لهم، وهذا يعتبر من باب اختيار المقدمات المناسبة للكلام.

وقوله: **(رحمك الله)** جملة خبرية لفظًا، إنشائية معنًى؛ لأن المراد بها الدعاء للمتعلم بالرحمة؛ أي: غفر الله لك ما مضى من ذنوبك، ووفَّقك وعصمك فيما يُسْتَقبل، هذا إذا أُفردت الرحمة، وإذا قُرِنَت بالمغفرة: فالمغفرة لما مضى، والرحمة لما يُستقبل بالتوفيق للخير والسلامة من الذنوب.

أنه يجِب علينا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ: (الأُولى) العِلم،

قوله: (يجب علينا تعلم أربع مسائل: (الأولى): العلم)، المراد هنا: الوجوب العيني، وهو ما يجب أداؤه على كل مكلف بعينه.

والتعلُّم: تحصيل العلم، والعلم: معرفة الهدى بدليله.

والمراد بالعلم هنا: العلم الشرعي، والمقصود به ما كان تعلُّمه فرض عين، وهو كل علم يحتاج إليه المكلف في أمر دينه؛ كأصول الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يجب اجتنابه من المحرمات، وما يحتاج إليه في المعاملات، ونحو ذلك مما لا يتم الواجب إلا به، فالعلم به واجب عليه[(١)].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله: صلاته وصيامه، ونحو ذلك[(٢)].

فالواجب على المسلم أن يتعلم ما يجب عليه من أمر دينه مما يتعلَّق بعقيدته وعبادته ومعاملته، وعليه أن يسأل أهل العلم، ويَحْذَرَ من الإعراض عمَّا جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وعليه أن يقبل النصح والتوجيه، وينقاد للحق، فهذه صفة المؤمن الحق.

أما العلم الذي تعلُّمه فرض كفاية كتفاريع المسائل الفقهية والاطلاع على أقوال العلماء ومعرفة الخلاف، ومناقشة الأدلة، فهذا

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر ص(٣١)، «حاشية ابن قاسم على ثلاثة الأصول» ص(١٠).

(٢) «الفروع» لابن مفلح (١/٥٢٥).

وهو مَعْرِفَةُ اللهِ، ومعرِفةُ نَبِيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلام بالأَدلَّةِ.

ليس بواجب على كل مسلم، فإذا وُجِدَ من يقوم به من أهل العلم صار في حقِّ الباقين سُنَّة.

وممَّا يدل على أن العلم واجبٌ، حديثُ أنسٍ ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: «**طلبُ العلم فريضة على كل مسلم**»[(١)].

وقد فسَّر الشيخ ﵀ العلم الذي لا بد من تعلُّمه بأنه يتناول ثلاثة أمور، وهي «الأصول الثلاثة» **فقال:** **(وهو معرفة الله، ومعرفة نبيِّه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة)**.

---

(١) أخرجه من أصحاب الكتب الستة ابن ماجه (٨١/١)، وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (رقم ٢٨٣٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣٣/١)، وغيرهم كثيرون، وقد اختلف أهل العلم في هذا الحديث، فمنهم من صحَّحه، ومنهم من ضعَّفه، فقد نقل ابن الجوزي في «العلل» (٦٦/١) قول الإمام أحمد: (لا يثبت عندنا في هذا الباب شيء)، والحديث مرويٌّ عن عدد من الصحابة ﵃، وله طرق جمعها السيوطي في جزء مطبوع، ورواه ابن الجوزي في «العلل» (٥٧/١) من أربعة عشر طريقًا، من حديث أنس ﵁ ثم تكلم عليها، وقد صححه بعض الحفاظ المتأخرين، قال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٥٨/١): (قال الحافظ المزي الشافعي: وله طرق كثيرة عن أنس، يصل مجموعها إلى مرتبة الحسن... وفي «تلخيص الواهيات» للذهبي: روي عن علي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وجابر وأنس وأبي سعيد، وبعض طرقه أوهى من بعض، وبعضها صالح، والله أعلم). ومال السخاوي في «المقاصد» ص(٢٧٥) إلى تصحيحه، ونقل المناوي في «فيض القدير» (٣٥٤/٤) أن السيوطي حسنه، وممن صححه الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» ص(٤٨)، وقال بعد أن تكلم عن طرقه: (إن طرقه يقوي بعضها بعضًا، بل أحدها حسن، فالحديث بمجموع ذلك صحيح بلا ريب عندي) لكن كلمة الإمام أحمد المتقدمة لها وزنها، وعليها المعوَّل.

قال السخاوي في «المقاصد» ص(٢٧٧): (قد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث: «ومسلمة»، وليس لها ذكر في شيء من طرقه، وإن كان معناها صحيحًا). اهـ.

. . . .

وخصَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذه الأمور؛ لأنها هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا عليها، وهي التي يُسأل عنها العبد في قبره، فالإنسان إذا عرف ربَّه، وعرف نبيَّه، وعرف دينه الإسلام بالأدلة كمُل له دينُه، فهذا هو العلم الشرعي الذي لا بد منه.

وقوله: **(معرفة الله)**؛ أي: إن معرفة الله تعالى هي أساس الدين، ولا يكون الإنسان على حقيقةٍ من دينه إلا بعد معرفة الله تعالى، ومعرفة الله تعالى والإقرار بوجوده أمر ضروري فطري؛ لأن الله تعالى قد أودع في قلوب جميع الإنس والجن الإقرار بالله وبربوبيته، وهذه حقيقة أكدها القرآن والسُّنَّة، وهذا مما يقوي هذه الفطرة وينميها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (جمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى، وهم مفطورون على ذلك، ولهذا إذا ذُكر لأحدهم اسمه تعالى، وجد نفسه ذاكراةً له مقبلةً عليه، كما إذا ذُكر له ما هو معروف عنده من المخلوقات)[1]. وأما النظر في الآيات الشرعية من الكتاب والسُّنَّة، والنظر في الآيات الكونية التي هي المخلوقات، فهو غير مقتصر على توحيد الربوبية، بل هو مسوق لتقرير قضية إفراد الله بالعبادة، والإيمان بالبعث والجزاء[2].

وقوله: **(ومعرفة نبيِّه)**؛ أي: إنَّ معرفة النبيِّ ﷺ فرضٌ على كل مكلَّف، وأحد مُهمَّات الدين؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ عن الله تعالى،

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٨ ـ ٣٧ ـ ٣٨). وانظر: «الفطرة: حقيقتها ومذاهب الناس فيها» ص(٢٢٧).

(٢) انظر: «الفطرة» ص(٢٤٦).

. . . .

وهذه المعرفة تستلزم قَبول ما جاء به من عند الله تعالى من الهدى ودين الحق[(١)]، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ تفصيل ذلك في مَحَلِّه.

وقوله: (ومعرفة دين الإسلام بالأدلة)، الإسلام له معنيان: معنًى عام، ومعنًى خاص؛ لأنه قد وردت أدلة تدل على أن الإسلام خاصٌّ بهذه الأمة، ووردت أدلة تدل على أن الإسلام موجود في الشرائع السابقة، فتحريرًا للمسألة أذكرُ كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموضوع[(٢)]، وهو أن الإسلام له معنيان: معنى عام، ومعنى خاص.

فالإسلام بالمعنى العام يراد به: عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا دين الأنبياء عمومًا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن التوراة وأنبياء بني إسرائيل: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، فوصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنبياء بني إسرائيل بالإسلام، ممَّا يدل على أن الإسلام ليس خاصًّا بهذه الأمة بل هو عام، وذَكَرَ الله ـ تعالى ـ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، وعن أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، فهذا هو الإسلام بالمعنى العام.

أما الإسلام بالمعنى الخاص فيراد به: الدين الذي بعث الله نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به، وجعله خاتمة الأديان لا يُقبل من أحدٍ دينٌ سواه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

(١) المصدر السابق ص(١٣)، و«حاشية ابن قاسم» ص(١١).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٤). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٧).

(الثَّانِيَةُ) العملُ به.

مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فهذه الآية تفيد أن الله ـ تعالى ـ ارتضى لهذه الأمة الإسلام دينًا، فيفسَّر بالمعنى الخاص.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفسُ محمَّدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»(١).

وقوله: **(بالأدلة)** جمع دليل، والدليل فعيل؛ بمعنى: فاعل. من الدلالة، وهي الإرشاد، فالدليل هو المُرشد إلى المطلوب، وهو **إما سمعي**: وهو ما ثبت بالوحي من كتاب أو سُنَّة، **وإما عقلي**: وهو ما ثبت بالنظر والتأمل، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ شيء من ذلك في أثناء الرسالة.

وفي كلام الشيخ رحمه الله إشارة إلى أن التقليد لا ينفع في باب العقائد، وأنه لا بد من معرفة دين الإسلام بالأدلة من كتاب أو سُنَّة أو إجماع.

قول المصنف رحمه الله: **((الثانية) العمل به)**؛ أي: العَمَلُ بالعلم؛ لأن العلم لا يطلب إلا للعمل، وذلك بأن يتحول العلم إلى سلوك واقعي يظهر على فكر الإنسان وتصرُّفه، وقد وردت النصوص الشرعية في وجوب اتباع العلم بالعمل، وظهور آثار العلم على طالبه، وورد الوعيد الشديد لمن لا يعمل بعلمه، ولم يبدأ بإصلاح

(١) رواه مسلم (١٥٣).

. . . .

نفسه قبل إصلاح غيره، وهي أدلة معروفة معلومة[١].

وما أحسن قول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: (لا يزال العالم جاهلًا حتى يعمل بعلمه، فإذا عَمِلَ به صار عالمًا)، وهذا كلام دقيق؛ لأنه إذا كان عنده علم، ولكنه لا يعمل بهذا العلم فهو جاهل؛ لأنه ليس بينه وبين الجاهل فرق إذا كان عنده علم، ولكنه لا يعمل به، فلا يكون العالم عالمًا حقًّا إلا إذا عمل بما علم، وقال الخطيب البغدادي: «العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يُعَدُّ عالمًا من لم يكن بعلمه عاملًا»[٢]. وقال ابن القيم: (الأعمال إنما تتفاوت في القَبول والردِّ بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المِحَكُّ)[٣].

ثم إن العمل إضافة إلى أنه حجة للإنسان فهو ـ أيضًا ـ من أسباب ثبات العلم وبقائه، ولهذا تجد الذي يعمل بعلمه يستحضر علمه، أما الذي لا يعمل بعلمه، فسرعان ما يضيع علمه، قال بعض السلف: (كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به)[٤].

أضف إلى هذا ما قاله بعض أهل العلم: (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، ومن لم يعمل بما عَلِمَ أوشك الله أن

---

(١) انظر: «العمل بالعلم بين الواقع والواجب» لراقمه، ط١، دار المسلم.
(٢) «اقتضاء العلم العمل» ص(١٤).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٢٨).
(٤) انظر: «اقتضاء العلم العمل» ص(٩٠).

....

يسلبه ما عَلِمَ)، وهذا يذكره بعضهم على أنه حديث[١]، وهذا ليس بصحيح[٢]، إنما هي عبارة مأثورة ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، ومعنى أورثه الله علم ما لم يعلم: أي زاده إيمانًا ونوّر بصيرته وفتح عليه من العلوم أنواعًا وفروعًا؛ ولهذا تجد العالم العامل بازدياد، ويبارك الله في وقته وعلمه.

ودليل هذا في كتاب الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، قال الشوكاني: (زادهم إيمانًا وعلمًا وبصيرة في الدين؛ أي: والذين اهتدوا إلى طريق الخير فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به زادهم إيمانًا وعلمًا وبصيرة في الدين)[٣].

فعلى المسلم أن يدرك أهمية العمل بالعلم، وأن الإنسان الذي لا يعمل بعلمه سيكون علمه حجة عليه، كما ورد في حديث أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزول قَدَما عبدٍ يومَ القيامة حتى يُسأل عن أربع**، ومنها: **وعن علمه ماذا عمل فيه**»[٤]، وهذا لا يَخُصُّ العلماء، كما قد يفهم بعض الناس، بل كل مَن عَلِمَ مسألة من المسائل قامت عليه الحجة فيها، فإذا سمع إنسان فائدة في محاضرة

(١) كالبيضاوي في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، وراجع: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٥/١٠).

(٢) انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني (٤٢٣/١)، (رقم ٤٢٢).

(٣) «فتح القدير» (٣٥/٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، وقال: «حديث حسن صحيح». وانظر: «الصحيحة» للألباني (رقم ٩٤٦)، و«اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي ص(١٦، وما بعدها)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٥/١).

(الثالثةُ) الدَّعْوَةُ إليه.

أو خطبة جمعة تضمَّنت تحذيرًا من معصية هو واقع فيها، فعلم أن هذه المعصية التي وقع فيها أنها أمر مُحَرَّم، فهذا عِلْمٌ، فتقوم عليه الحجة بما سمع، وقد ثبت في حديث أبي موسى الأشعري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**القرآن حجة لك أو عليك**»(١).

قول المصنف ﵀: **((الثالثة) الدعوة إليه)**؛ أي: الدعوة إلى توحيد الله وطاعته، وهذه وظيفة الرسل وأتباعهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ لأن الإنسان إذا كملت قوته العلمية بالعلم، وقوته العملية بالعمل؛ فإنَّ عليه أن يسعى إلى بذل الخير للآخرين، تأسيًا برسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام.

والدعوة إلى الله تعالى أمرُها عظيم، وثوابها جزيل، كما قال النبي ﷺ: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم**»(٢)، والدعوة لا تؤتي ثمارها وتكون وسيلة إصلاح وبناء، إلا إذا كان الداعي متصفًا بما يكون سببًا لقبول دعوته وظهور أثرها، **ومن ذلك**:

١ ـ **التقوى**: ويُقصد بها كل معانيها من امتثال المأمور واجتناب المحظور، والتحلِّي بصفات أهل الإيمان.

٢ ـ **الإخلاص**: بأن يقصد بدعوته وجه الله تعالى ورضاه، والإحسان إلى خلقه، ويَحْذَرَ من أن يقصد إظهار التميز على غيره، وإذلال المدعوِّ بإشعاره بالجهل والتقصير.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) في حديث طويل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

. . . .

٣ ـ **العلم**: فلا بد أن يكون الداعي عالمًا بما يدعو به، ذا فَهمٍ لما جاء في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، وسير السلف الصالح.

٤ ـ **الحِلم وضبط النفس عند الغضب**؛ لأن ميدان الداعية صدور الرجال ونفوس البشر، وهي متباينة ومختلفة كاختلاف صورهم وأشكالهم.

٥ ـ أن يبدأ بالأهم فالأهم على حسب البيئة التي يدعو فيها، فمسائل العقيدة وأصول الدين تأتي في المقام الأول، وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله....**» الحديث[1].

٦ ـ أن يسلك في دعوته المنهج الذي نصَّ الله عليه في كتابه الكريم، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان، ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، وإلانة القول وتنشيط الموعوظ. ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ فيسلك كلَّ طريق يكون أدعى للاستجابة: من الالتزام بالموضوع، والبُعد عن الانفعال، والترفع عن المسائل الصغيرة في مقابل القضايا الكبرى، حفظًا للوقت، وعزة للنفس، وكمالًا للمروءة[2].

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٤٧٨/٢)، «تفسير ابن سعدي» ص(٤٥٢)، ورسالة «مفهوم الحكمة في الدعوة» للدكتور صالح بن حميد.

(الرابِعة) الصَّبْرُ على الأذَى فيه.

قوله: ((الرابعة) الصبر على الأذى فيه)؛ أي: الرابعة من المسائل الأربع: الصبر على الأذى في الدعوة إلى الله تعالى، بأن يكون الداعية صابرًا على ما يناله من أذية الناس؛ لأن أذية الدعاة من طبيعة البشر إلا من هدى الله، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

فيجب على الداعية أن يكون صابرًا على دعوته مستمرًّا فيها، صابرًا على ما يعترض دعوته أو ما يعترضه هو من الأذى؛ لأن الداعية يطلب من الناس أن يتحرَّروا من شهواتهم ورغباتهم، وعادات أقوامهم، ويقفوا عند حدود الله تعالى في أوامره ونواهيه، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذا المنهج، فلهذا يقاومون الدعوة بكل قوة، ويحاربون دعاتها بكل سلاح، قال ـ تعالى ـ عن لقمان الحكيم في وصيَّته لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

وعلى الداعية أن يتأسَّى بالرسل الكرام الذين قصَّ الله علينا أخبارهم، وما حصل لهم من مشاق الدعوة ومتاعبها من إعراض الناس عن دعوتهم وأذيتهم بالقول والفعل مع طول الطريق واستبطاء النَّصر، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقد جعل الله ـ تعالى ـ العاقبة للمتقين، وكتب النصر لدعاة الحق، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

والدَّلِيلُ قولُه تعالى: بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

قوله: (والدليل قوله تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣]) استدلَّ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ على هذه المسائل الأربع بسورة عظيمة لا تزيد على ثلاث آيات، وهي سورة العصر، فالمسألة الأولى والثانية في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإن الإيمان لا يكون صحيحًا، والعمل لا يكون صالحًا إلا بالعلم بأن يعبد الله على بصيرة، والمسألة الثالثة في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، والرابعة في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وقوله تعالى: (﴿وَٱلْعَصْرِ﴾) هذا قَسَم، والعصر المراد به: الزمن والدهر الذي تقع فيه الأحداث من خير أو شر. أقسَمَ الله به؛ لأن أفعال الناس وتصرفاتهم كلها تقع في هذا الزمن، فهو ظرف يودعه العباد أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فهو جدير أن يقسم به، وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغة العرب. وقيل: المراد بالعصر: ما بَعْدَ العَشِيِّ وهو آخر النهار، ومنه صلاة العصر، والأول هو الأظهر في معنى الآية، والله أعلم[(١)].

وجواب القسَم قوله ـ تعالى ـ: (﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾)، فالله ـ تعالى ـ يُقسِم بالعصر على أن الإنسان في خُسر، والألف واللام للاستغراق والشمول بدليل الاستثناء بعده؛ أي: كل إنسان في

(١) انظر: «التبيان في أيمان القرآن» ص(١٣٣)، «فتح القدير» (٥/٤٩١).

....

خسر، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

والخسر: هو النقصان والهَلَكة؛ لأن حياة الإنسان هي رأسُ مالِه، فإذا مات ولم يؤمن ولم يعمل صالحًا خَسِرَ كل الخسران.

ولم يبين هنا نوع الخسران في أي شيء بل أطلق ليعُمَّ، فقد يكون مطلقًا كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم، واستحق الجحيم، وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض.

والذي يستفاد من مفهوم الآية أن الخسران قد يكون بالكفر ـ والعياذ بالله ـ، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقد يكون بترك العمل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقد يكون الخسران بترك التواصي بالحق كلية، أو التواصي بالباطل، وليس بعد الحق إلا الضلال، وقد يكون بترك التواصي بالصبر كلية، أو بالوقوع في الهلع والجزع، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١][1].

والمقصود أن الإنسان في خُسْرٍ مهما كثُر ماله وولده، وعظُم

(١) انظر: «تفسير ابن سعدي» ص(٩٣٤)، «أضواء البيان» التتمة (٩/٤٩٥).

. . . .

قدره وشرفه، إلا من اتصف بالصفات الأربع، فعلى الإنسان أن يتأمل حاله ويعلم يقينًا أنه لا نجاة للعبد من الخسران إلا بهذا الطريق الذي رسمه الله تعالى.

وقوله تعالى: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾) هذا هو الوصف الأول لمن يَسْلَم من الخسار وهو وصف الإيمان؛ والمعنى: إلا الذين آمنوا بما أمر الله تعالى من الإيمان به، وهو الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين، وكل ما يقرب إلى الله تعالى من اعتقاد صحيح وعلم نافع.

وقوله تعالى: (﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) المراد بالعمل الصالح: أفعال الخير كلها، سواء أكانت ظاهرة أم باطنة، متعلقةً بحقوق الله تعالى، أو متعلقة بحقوق العباد، من قبيل الواجب أو من قبيل المستحب إذا خالصةً صوابًا.

وقوله تعالى: (﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾) المراد بالحق في هذه الآية ـ والله أعلم ـ هو ما تقدم من الإيمان بالله والعمل الصالح ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ جميع أنواع الصبر، الصبر على طاعة الله وأداء فرائضه والقيام بحقوقه وحقوق عباده، فهذا يحتاج إلى صبر، والصبر عن معصية الله؛ لأن النفس أمارة بالسوء، فلا بد للإنسان أن يصبر لئلا يقع في المعصية.

ومن الصبر أيضًا: الصبر عن البطر عند كثرة النعم، فيصبر الإنسان عن البطر والإسراف والتبذير عند وجود النعم أو كثرتها، ومن الصبر أيضًا: الصبر على المصائب وهي ما يصيب الإنسان في هذه الدنيا من مصائب وحوادث، فإنه عُرضة لذلك.

قال الشَّافِعِيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: لو ما أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً على خَلْقِهِ إلا هٰذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

قوله: **(قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: «لو ما أنزل الله حجةً على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم»)**؛ معنى قول الشافعي: لو أن الله ـ جلَّ وعلا ـ ما أنزل للبشرية منهاجًا، ولا جعل لها طريقًا إلا هذه السورة القصيرة ذات الثلاث الآيات لكانت كافية؛ لأن هذه السورة رسمت المنهج الذي شرعه الله تعالى طريقًا للنجاة وهو الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهذه الأمور الأربعة هي التي تحصل بها النجاة، فلو أن الله تعالى ما أنزل إلا هذه السورة لكان من أراد الله هدايته يعرف أنه لا نجاة له إلا بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهذا من الإعجاز الذي لا يَقْدِرُ عليه إلا الله تعالى.

آية واحدة تبين وظيفة الأمة الإسلامية ووظيفة كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية، وهي التواصي بالحق والتواصي بالصبر بعد الإيمان والعمل الصالح، فما أعظمها من سورة!.

ولهذا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما نقل كلام الشافعي قال: (هو كما قال ـ يعني: ما قاله الإمام الشافعي هو في محلِّه ـ فإن الله جلَّ وعلا أخبر أن جميع الناس خاسرون، إلا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا، ومع غيره موصيًا بالحق وموصيًا بالصبر) انتهى كلامه[(١)].

وقد جاء في تفسير ابن كثير ما يختلف عن العبارة التي ذكرها المصنف هنا، فقد جاء فيه: قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو تدبر الناس

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥٢/٢٨). وانظر: «التبيان» لابن القيم ص(١٣٣).

وقال البُخَارِيُّ رحمه اللهُ تعالى:

«(بابٌ): العِلْمُ قَبْلَ القولِ والعَمَلِ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَولِ والعَمَلِ».

هذه السورة لوسعتهم)[1]؛ والمعنى واحد، والله أعلم.

قوله: (وقال البخاري رحمه الله تعالى)؛ يعني: في كتاب العلم من «صحيحه»: **(بابٌ: العلم قبل القول والعمل)**.

وقوله: (بابٌ) يُقرأ بالتنوين؛ لأنه مقطوع عن الإضافة، والعلم: مبتدأ، قبل القول: خبر المبتدأ، أفادت هذه الترجمة أن قول الإنسان وعمله لا اعتبار له في ميزان الشرع إلا إذا كان قائمًا على العلم، فالعلم شرط لصحة القول والعمل.

وقوله: (والدليل) هذا من كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي في «الصحيح» أن البخاري قال: بابٌ: العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى...[2]، ولكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبَّر **بقوله: (والدليل)** ليكون أوضح.

(قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] **فبدأ بالعلم قبل القول والعمل)**، وهذا من كلام البخاري أيضًا، لكن ليس في «صحيحه» كلمة **(قبل القول والعمل)** إنما الذي فيه **(فبدأ بالعلم)**، فإما أن يكون **قوله: (قبل القول والعمل)** من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتوضيح،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٤٩٩).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (١/١٥٩ ـ الفتح).

....

أو أنه في نسخة أخرى، **وقوله تعالى**: (﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾) الخطاب للرسول ﷺ، وهو يشمل الأمة، وهذا هو العلم.

(﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾) هذا هو العمل، وقد استدل بعض السلف بهذه الآية على فضل العلم، فقد ذكر أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الحلية» عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سئل عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به، فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم أمره بالعمل بعد ذلك فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[(١)].

ووجه الاستدلال على فضل العلم أن الله تعالى بدأ به، فأمر نبيه ﷺ بالعلم قبل أن يأمره بالعمل، **وهذا يدلنا على أمرين**:

أولًا: على فضل العلم.

ثانيًا: على أن العلم مقدَّم على العمل.

قال ابن القيم: (العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتَمٌّ به، فكل عمل لا يكون خَلْفَ العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه، بل مَضرةٌ عليه، كما قال بعض السلف: من عَبَدَ الله بغير علم، كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح..)[(٢)].



(١) «حلية الأولياء» (٣٠٥/٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٢٧/١ ـ ٢٢٨).

اعلمْ رحِمَك اللهُ أَنه يجبُ على كل مسلمٍ ومسلمةٍ تَعَلُّمُ هَذِهِ المسائِل الثلاثِ والعملُ بِهِنَّ:

(الأُولى) أَنَّ اللهَ خَلقَنَا ورَزَقَنَا ولم يَتْرُكْنَا هَمَلًا،

قوله: (اعلم رحمك الله) هذا دعاء من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يدل على حرصه ونفعه لأخيه المسلم، كما تقدم.

قوله: (أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه المسائل الثلاث[1] والعمل بهن)، المراد بالوجوب هنا: الواجب العيني، وهذه المسائل الثلاث مجملها: **الأولى**: في توحيد الربوبية، **والثانية**: في توحيد الألوهية، **والثالثة**: في الولاء والبراء.

وهذه المسائل الثلاث مسائل عظيمة لا بد من تعلُّمها والعمل بها؛ لأنها قاعدة الدين وأساس العقيدة، فـ **(الأولى)**: التي هي توحيد الربوبية **(أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً)**، **هذه ثلاثة أمور:**

الأول: أن الله تعالى خَلَقنا، والدليل على أن الله خَلَقنا: هو السمع والعقل، أما السمع فآياته كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، أما العقل فقد دلَّ عليه قول الله تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [٣٥]،

---

(١) في نسخة الأصول ضمن مؤلفات الشيخ: (ثلاث هذه المسائل)، وفي «المجموع» المطبوع بدار المعارف في مصر: (تعلّم هذه الثلاث مسائل)، ولعل المثبت أوضح، وهو في بعض المطبوعات.

. . . .

ففي هذه الآية دليل عقليٌّ على أنه لا بد من خالق، وأنه لم يوجد هذا الكون صدفة؛ لأن القسمة العقلية تقتضي ثلاثة أمور لا رابع لها: إما أننا خُلقنا بدون خالق، وهذا لا يمكن؛ لأن الخلق لا بد أن يتعلَّق بخالق؛ كالتحريك يتعلق بمحرك، فلا يمكن للشيء أن يتحرك من مكانه إلا بوجود محرك له، وهذا أمر ضروري يعرفه العقلاء، فكوننا خُلقنا بدون خالق هذا لا يمكن، والناس بمقتضى عقولهم ـ حتى المعاندون منهم ـ يعرفون هذا، فلو قيل لشخص: إن هناك قصرًا من القصور جُهِّز بكل ما تشتهيه الأنفس وتتمناه، ولكن هذا القصر وُجِدَ صدفة بدون بناء ولا إعداد، لَبادر الناس إلى التكذيب، وقالوا: هذا لا يمكن؛ لأن القصر يحتاج إلى بناء، وما فيه يحتاج إلى إعداد، فلا بد من عُمال وصُناع.

الأمر الثاني: أننا خَلقنا أنفسنا، وهذا أشد فسادًا مما قبله؛ لأننا معدومون، والمعدوم لا يمكن أن يكون قادرًا على إيجاد نفسه؛ لأن العدم نقص، والخلق كمال، فكيف يكون الناقص كاملًا، هذا لا يمكن.

فيتعين **الأمر الثالث**: وهو أنه لا بُدَّ لنا من خالق وهو الرب القادر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ [الطور: ٣٥]؛ يعني: هل هم خُلقوا هكذا دون خالق؟ هذا الأمر الأول، أم هُمُ الخالقون؟ يعني: لأنفسهم هذا الأمر الثاني، والأمر الثالث لم تذكره الآية؛ لأنه إذا امتنع الأمر الأول والثاني يتعين الأمر الثالث.

....

وقد ورد في الحديث أن رجلًا مشركًا سمع هذه الآية فدخل الإيمان في قلبه، وهو جبير بن مطعم رضي الله عنه كما في «صحيح البخاري»[(١)] أنه جاء في موضوع أسارى بدر والنبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور، فمرت الآية وجبير يسمع، فقال معبرًا عن نفسه: (كاد قلبي أن يطير، ومنذ ذلك الوقت وقر الإيمان في قلبي)؛ لأنه من أهل اللَّسن والفصاحة والبلاغة، فعرف الآية ومعناها وما تدل عليه؛ فوقر الإيمان في قلبه[(٢)].

قوله: (ورزقنا)، هذا الأمر الثاني مما يتعلق بتوحيد الربوبية، والدليل على أن الله تعالى رزقنا آيات كثيرة من القرآن الكريم، كقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات.

والرِّزق: اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله. قال في «القاموس»: الرِّزق ـ بالكسر ـ: ما ينتفع به كل مرتزق، **والرزق نوعان:**

١ ـ **خاص**: وهذا هو الرزق الحلال للمؤمنين: وهذا هو الرزق النافع الذي لا تبعة فيه إذا كان عونًا على طاعة الله تعالى،

---

(١) (٢/٢٤٧ ـ الفتح) في الصلاة، و(٦/١٦٨) في الجهاد، و(٧/٣٢٣) في المغازي، و(٨/٦٠٣) في التفسير.

(٢) انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي ص(٣٩٠).

. . . .

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

٢ ـ **عام**: وهو ما به قوام البدن، سواء كان حلالًا أو حرامًا، وسواء كان المرزوق مسلمًا أو كافرًا، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦][(١)].

وقوله: **(ولم يتركنا هَمَلًا)** هذا الأمر الثالث، والهَمَل بالتحريك: هو السُّدى المتروك ليلًا ونهارًا، ولم يرد اللفظ هذا في القرآن الكريم، إنما الذي ورد في القرآن الكريم: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وورد في القرآن الكريم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فالهَمَل والسُّدى والعبث بمعنى واحد، وهو المتروك الذي لا يؤمر ولا ينهى، والدليل من السمع على أن الله تعالى لم يتركنا سدًى هو ما تقدم.

أما الدليل من العقل: فإن الله ـ جلَّ وعلا ـ حكيم، فقد خلقنا ورزقنا، وأرسل إلينا الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأوجب علينا طاعتهم، وأمرنا بقتال المعاندين، فلو لم يكن هناك حساب ولا عقاب ولا ثواب ولا جزاء؛ لكان هذا من العبث الذي ينزَّه الله تعالى عنه، فالله ـ تعالى ـ شرع هذه الأمور لِمَعاد يحاسب عليه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فهذا الدليل العقلي يدل

(١) انظر: «لوامع الأنوار البهية» (١/٣٤٣).

بلْ أَرْسَلَ إلينا رسولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دخل الجنةَ، ومَن عَصَاهُ دخل النارَ.

على أن الله ـ تعالى ـ لم يتركنا هَمَلًا، وأن الجزاء الأخروي تعقبه الحياة الأبدية، وهي الحياة الحقيقية، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، سمَّاها حياة مع أن الدنيا حياة، لكنها حياة إلى زوال وانقضاء، وأما حياة البقاء والخلود فهي الحياة في الدار الآخرة، إما في عذاب سرمدي، وإما في نعيم دائم، ـ نسأل الله الكريم من فضله ـ.

قوله: (بل أرسل إلينا رسولًا، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار). هذا دليل على أن الله تعالى لم يتركنا هملًا، والمراد بالرسول هو محمد ﷺ، والمراد **بقول المصنف**: (أرسل إلينا)؛ أي: معشر الأمة.

وقد جاء في القرآن الكريم آية عظيمة تبين الغاية من بعثة الرسول ﷺ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، فالغاية من إرسال الرسل: طاعتهم واتباعهم فيما جاؤوا به عن الله ـ تعالى ـ، وأما الحكمة من إرسال الرسل فهي هداية البشرية إلى الصراط المستقيم، وبيان عبادة الله ـ تعالى ـ على الوجه المرضي؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك[١]، والتلقي لا يمكن عن الله تعالى إلا بواسطة الرسل، فالرسل واسطة بين الله تعالى وبين الخلق، والرسول ﷺ هو الذي يشرِّع للأمة بعد تشريع الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

(١) انظر: «نبذة في العقيدة الإسلامية» ص(٣٩).

والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾.

ثم بيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مآل الطائعين والعُصاة **بقوله**: **(فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار)**، وهذا دلَّ عليه القرآن الكريم في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وفي الجانب الآخر: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**». قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[1].

قوله: **(والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾** [المزمل: ١٥، ١٦]) هذا دليل على المسألة الأخيرة، وهي **قوله**: **(بل أرسل إلينا رسولًا)**، والخطاب في **قوله تعالى**: **(﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾)**؛ لكفار قريش، والمراد سائر الناس **(﴿رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾)**؛ يعني: شاهدًا على أعمالكم، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله تعالى: **(﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾)**، هو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعدم تعيينه؛

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

. . . .

لعدم دخوله في التشبيه، أو لأنه معلوم غنيٌّ عن البيان[(١)].

والمقصود من هذه الآية ـ والله أعلم ـ تذكير هذه الأمة بهذه النعمة العظيمة، وهي إرسال هذا النبي الكريم وتحذيرها أن تفعل مثل ما فعل قوم فرعون فيصيبهم ما أصابهم؛ والمعنى: أن الله ـ جلَّ وعلا ـ أرسل إليكم رسولًا، كما أرسل إلى فرعون رسولًا، فانظروا ماذا كان موقف فرعون وقومه من الرسول؛ لأن سُنَّة الله واحدة لا تتغير ولا تتبدل، **قال تعالى**: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، وأصل الوبيل في اللغة: الثقيل الشديد، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]. تقول العرب: كَلَأٌ وبيل، وطعام وبيل؛ أي: ثقيل رديء العقبىٰ، والطعام الذي يُستمرأ تهضمه المَعِدة براحة وفي وقت قصير، أما إذا كان الطعام لا يستمرأ، فإن المعدة لا تهضمه بسهولة وتحتاج إلى وقت أطول، وقد يكون له عواقب وخيمة.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الحق ثقيل مَرِي، والباطل خفيف وَبِي»[(٣)]؛ يعني: عاقبته وخيمة، أما الحق فإنه وإن كان الإنسان يحسب أنه ثقيل عليه فهو مريٌّ خفيف، عاقبته حميدة، فالله تعالى أخذ فرعون أخذًا شديدًا مهلكًا؛ عاقبته وخيمة، وذلك بإغراقه وجنوده في البحر فلم يفلت منهم أحد، ثم بعد ذلك في عذاب البرزخ إلى يوم

(١) «روح المعاني» (١٠٨/٢٩).

(٢) ذكره البخاري (٦٧٥/٨ ـ الفتح) معلقًا، ووصله الطبري (٢٩/ ١٣٧) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٣).

(٣) «حلية الأولياء» (١٣٤/١)، وانظر: «لسان العرب» (١٩٠/١).

(الثانيةُ) أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ معه أَحَدٌ في عِبَادَتِهِ لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾.

القيامة، ثم عذاب النار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **((الثانية) أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته لا مَلَك مقرَّب ولا نبي مرسل)** هذه المسألة الثانية وهي في توحيد الألوهية؛ والمعنى: أن الله جلَّ وعلا يوجب على المكلَّفين إفراده بالعبادة؛ لأنه هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق الرازق، له المُلك والأمر، فلا يرضى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُشرك معه أحد مهما بلغ هذا الشخص من الطهارة والعلو والرفعة، لا مَلَك مقرَّب ولا نبي مرسل، وإذا كان الله تعالى لا يرضى أن يشرك معه لا ملك مقرب وهم مقربون إلى الله تعالى، ولا نبي مرسل وقد اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن غيرهم من الخليقة من باب أولى؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله تعالى، وصرفها لغير الله ظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والله ـ جلَّ وعلا ـ لا يرضى لعباده الكفر، وإنما يرضى لهم الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧].

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]) المساجد جمع مسجد، وهو كلُّ موضعٍ بُني

(الثالثةُ) أَنَّ مَن أَطَاعَ الرسولَ وَوَحَّدَ اللهَ لا يجوز له مُوَالَاةُ مَن حادَّ الله ورسولَه.......................................

للصلاة والعبادة وذكر الله تعالى، والدليل على هذا المعنى قول النبي ﷺ في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد: «**إن هذا المسجد لا يصلح لشيء من ذلك، إنما بُنيَ لذكر الله تعالى، وللصلاة**»[1]، وهذه وظيفة المساجد، وهذه الإضافة في الآية إضافة تشريف وتخصيص، ويكون المعنى على التخصيص: أنكم إذا دخلتم المساجد للعبادة فلا تدعوا فيها مع الله أحدًا؛ لأنها بيوت الله، فكيف تدخل بيته وتدعو معه غيره؟

وقوله تعالى: (﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾)، ﴿أَحَدًا﴾ نكرة، والنكرة في سياق النهي تفيد العموم؛ أي: فلا تدعوا مع الله أحدًا كائنًا من كان، لا مَلَكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، وما دون ذلك من باب أولى، كما تقدم.

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **((الثالثة) أن من أطاع الرسول ووحَّد الله لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله)**.

هذه المسألة الثالثة، وموضوعها: الولاء والبراء، والولاء: مصدر ولي بمعنى قرُب ودنا منه، والمراد به هنا: القرب من المسلمين بمودتهم وإعانتهم ومناصرتهم على أعدائهم والسكنى معهم، والبراء: مصدر بَرِئ: إذا تخلَّص، وبرئ: إذا تنزه وتباعد، وبرئ: إذا قطع، والمراد هنا: قطع الصلة مع الكفار فلا يحبهم،

(١) أخرجه البخاري (٢٢١)، ومسلم (٢٨٥).

....

ولا يناصرهم، ولا يقيم في ديارهم إلا لضرورة[(١)].

ومعنى كلام الشيخ: أن من أطاع الرسول فيما أمر، واجتنب ما عنه نهى وزجر، ووحَّد الله سبحانه، فهذه هي العقيدة الإسلامية، ومن أصول هذه العقيدة: أن يوالي أهلَها، ويبغض أهل الشرك ويعاديهم، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوثق عُرى الإيمان: الحبُّ في الله، والبغضُ في الله**»[(٢)].

فالحب في الله، والموالاة في الله، والمُعاداة في الله، من مقتضيات ملة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومن لوازم دين محمد ﷺ، والدليل على هذا (أي: على الثاني) قول الله تعالى ـ كما ذكر المصنف رحمه الله ـ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

ومعنى **قول المؤلف** رحمه الله: **(لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله)**؛ أي: عادى الله ورسوله، هذا معنى المحادَّة، وأصل المُحادَّة في اللغة: أن تكون في جانب، والشخص الذي تعاديه في

---

(١) انظر: «الولاء والبراء في الإسلام» ص(٨٧)، «أصول الإيمان في الكتاب والسُّنَّة» ص(٢٦٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٧، ١٠٥٣١)، والحديث حسنه الألباني في تعليقه على كتاب «الإيمان» لابن أبي شيبة ص(٤٥).

ولو كان أَقْرَبَ قَريبٍ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا

جانب آخر، ولا ريب أن من لم يطع الله ورسوله، فإنه يصدق عليه أنه محادٌّ لله ورسوله؛ كأنه بتصرفه هذا صار في جانب، والله ـ سبحانه ـ ورسوله ﷺ في جانب آخر.

والموالاة معناها: المصادقة والموادة والمحبة، وهي تُشعر بالقرب والدنو من الشيء، كما تقدم.

وقوله: **(ولو كان أقرب قريب)**؛ أي: الولد والوالد؛ لأنهما أقرب قريب للإنسان، إما الأصل وإما الفرع، ثم يأتي بعد هذا الإخوان ـ وهم الأعوان ـ ثم بعد هذا تأتي بقية القرابة.

لكن في باب الموالاة، وفي باب المعاداة لا قيمة للنسب، فأخوك في العقيدة هو أخوك الحقيقي، وعدوك الحقيقي هو عدوك في العقيدة، فأخوك الحق هو أخوك في العقيدة، ولو كان في أقصى الدنيا، وعدوك الحق هو عدوك في العقيدة، ولو كان أقرب قريب؛ إذ ليس هناك اعتبار للأنساب في ميزان الإسلام، إنما الاعتبار بهذه العقيدة، ولهذا أكد الله تعالى هذا المعنى، وضرب الأمثلة ببعض القرابة.

فقال تعالى: (﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ [المجادلة: ٢٢])، والفعل (لا تجدُ) بضم الدال، وإذا كانت مضمومة فهذا نفي، ويقول علماء البلاغة: إن النفي أبلغ من النهي؛ لأن النهي متعلق بالمستقبل، والنفي متعلق بالماضي والمستقبل، فيكون المعنى: لا تجد في أي وقت من الأوقات قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله.

يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

ومعنى: (﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾)؛ أي: يؤمنون الإيمان الصحيح الذي يتوافق فيه الظاهر مع الباطن، وهذا يفيد أن المعيار الصحيح لمعاداة الكفار هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا يوجب على الإنسان أن يتفقد إيمانه، فإن حصل عنده ميل أو ركون لمن حادَّ الله ورسوله؛ فعليه أن يراجع نفسه ويتأمل في إيمانه؛ لأن موالاتهم قد تكون دليلًا على فقد الإيمان بالكلية أو على ضعفه على حسب ما يقوم بالقلب، وعلى أي حال فموالاتهم أمرها خطير؛ لأن الله ـ جلَّ وعلا ـ نفى اجتماع الإيمان مع موادتهم، فقال سبحانه: (﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأخبر أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادِّين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته، كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلًا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب)[(١)].

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: (من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك موادٌّ لأعداء الله، محبٌّ لمن نبذ الإيمان وراء ظهره، فإن هذا الإيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا، ولا يُصدَّق صاحبها)[(٢)].

(١) «الإيمان» ص(١٣).
(٢) «تفسير ابن سعدي» ص(٧٨٧).

وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ....

وقوله تعالى: (﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾)؛ أي: لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، **وقوله:** (﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾)، قال الراغب: (العشيرة: اسم لكل جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثر بهم)[1]. اهـ.

وقال الألوسي: (وليس المراد بمن ذُكِرَ خصوصهم، وإنما المراد الأقارب مطلقًا، وقدَّم الآباء؛ لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف، وثَنَّى بالأبناء؛ لأنهم أعلق بهم لكونهم أكبادهم، وثَلَّثَ بالإخوان؛ لأنهم الناصرون لهم، وختم بالعشيرة؛ لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الإخوان غالبًا)[2].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ أنه جازاهم بخمسة أشياء، وبدأ تعالى بألطافه الدنيوية، فقال ـ جلَّ وعلا ـ: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾)؛ أي: جمعه في قلوبهم وثبته وأرساه، فهي قلوب مؤمنة مخلصة لا تؤثر فيها الشُّبَه ولا الشكوك (﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾)؛ أي: قوَّاهم (﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾)؛ أي: بنور وهدى ومدد إلٰهي، وإحسان رباني، وسمَّاه الله روحًا؛ لأنه سبب للحياة الطيبة. ثم ذكر آثار رحمته الأخروية، فقال سبحانه: (﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]) وهي دار كرامته، فيها ما لا عين رأت،

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني ص(٣٣٥).

(٢) «روح المعاني» (٣٦/٢٨).

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾) هذا استئناف جرى مجرى التعليل؛ والمعنى: أن الله يُحل عليهم رضوانه بطاعتهم إياه في الدنيا (﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾) في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة وما فيها من الكرامات، وهذا أعلى مراتب النعيم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفيه سِرٌّ بديع، وهو أنهم لمَّا أسخطوا الأقارب والعشائر في الله عوَّضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم)[(١)].

وقوله تعالى: (﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾) إضافة تشريف ببيان اختصاصهم به تعالى (﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]) الفلاح هو الفوز والظفر بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، وذكرت كلمة (﴿حِزْبَ ٱللَّهِ﴾) في الأول لبيان اختصاصهم به تعالى، كما مرَّ، والثانية لبيان اختصاصهم بسعادة الدارين.

وموالاة الكفار لها مظاهر متعددة يكثر ظهورها من زمن إلى زمن آخر، وهي في زماننا هذا أكثر، وسأذكر أهم هذه المظاهر، فمتى تلبَّس بها أو بشيء منها إنسان مسلم، فعليه أن يعلم أنه قد والاهم بقدر ما قام به من هذه المظاهر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة: ٥١]، **فمن هذه المظاهر:**

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٠).

. . . .

أولًا: الرِّضا بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة.

ثانيًا: التشبه بهم في عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم وإجازاتهم؛ لأنه ما تشبه بهم إلا لأنه معجب بهم، وراضٍ بأخلاقهم، والنبي ﷺ يقول: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**»(١).

ثالثًا: الاستعانة بهم في غير الضرورة، والثقة بهم، واتخاذهم أعوانًا وأنصارًا.

رابعًا: معاونتهم ومناصرتهم.

خامسًا: مشاركتهم في أعيادهم بإعانتهم إما بالحضور أو بالتهنئة.

سادسًا: التسمِّي بأسمائهم.

سابعًا: السفر إلى بلادهم لغير ضرورة، بل للنزهة ومتعة النفس، وسيأتي تفصيل هذه المسألة إن شاء الله تعالى.

ثامنًا: الاستغفار لهم والترحم عليهم إذا مات منهم ميت.

تاسعًا: مجاملتهم ومداهنتهم في الدين.

عاشرًا: استعارة قوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة وتربية أبنائها.

حادي عشر: الأخذ بتاريخ النصارى الميلادي المبني على أشهُرٍ وَهْمِيَّة غير مبنيّة على مشروع ولا معقول ولا محسوس،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (١٢٣/٩) وغيرهما، والحديث له طرق وشواهد لا تخلو من مقال. انظر: «منحة العلَّام» (١٥٧/١٠).

. . . .

ومن مفاسد ذلك: ربط المسلمين وناشئتهم بتاريخ النصارى، وإبعادهم عن التاريخ الهجري الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، وهو مرتبط برسولهم ﷺ وبشعائر دينهم[(١)].

فهذه بعض مظاهر موالاة الكفار، والمسألة تحتاج إلى بيان أكثر، وفيما ذُكر كفاية إن شاء الله[(٢)].

إن موضوع «**الولاء والبراء**» له أهمية كبرى؛ ومنزلة عظمى؛ لأنه من حقوق كلمة التوحيد، ومن لوازم ملة إبراهيم، ودين نبينا محمد صلَّى الله عليهما وسلَّم، وهو من أوثق عرى الإيمان، والمرءُ مع من أحبَّ يوم القيامة، كما ثبت في الحديث[(٣)].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحَّدَ الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء)[(٤)]، وقال الشيخ عمر بن عتيق: (إنه ليس في كتاب الله تعالى حكمٌ فيه من الأدلة أكثرَ ولا أبينَ من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده)[(٥)].

وتتأكد أهمية هذا الموضوع في زماننا ـ هذا ـ بسبب تسلُّط

(١) انظر بخصوص موضوع التاريخ: «بيان خطأ التاريخ الميلادي»، تأليف: عادل الجليفي و«التاريخ الهجري» إعداد زيد بن عبد الكريم الزيد.

(٢) راجع: «الدرر السنية» (٨/١٥٤)، «الولاء والبراء في الإسلام» تأليف: محمد بن سعيد القحطاني.

(٣) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤١).

(٤) «الدرر السنية» (٨/٣٣١).

(٥) «سبيل النجاة والفكاك» ص(٣١).

. . . .

الكفار على بلاد المسلمين، وذلك ببيان حقيقة الولاء والبراء، وضوابطه وأقسامه وعواقبه، **ووجه هذا التأكد أمور ثلاثة**:

الأول: ظهور موالاة الكفار ومحبتهم في صور شتى كما تقدم.

الثاني: أنه ظهر من بين المسلمين من ينادي بتمييع هذا الأصل العظيم، والتهوين من شأنه، وحذفه من المناهج الدراسية، لينشأ جيل لا يعرف شيئًا عن الولاء والبراء.

الثالث: عدم فهم هذا الموضوع على وجهه الصحيح، فإن الناس فيه ما بين غالٍ في فهمه، متشدد في تطبيقه، وما بين ضالٍّ في فهمه متساهل في تحقيقه، وأهل الحق والوسطية هم الذين فهموه على وجهه الصحيح؛ مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسُّنَّة، وهو بغض الكفار ومعاداتهم، دون ظلم أحد منهم، أو قتل من كان معاهدًا[1].

وليس من موالاتهم تبادل المصالح معهم بالبيع والشراء، والإحسانُ إلى من أحسن إلينا منهم، أو كون ولي الأمر يتألَّفهم إذا خشي على المسلمين منهم، وكذا الاستفادة مما عندهم مما هو نافع للأمة الإسلامية، من نتاج الأبحاث العلمية، وثمرات القوى الفكرية. إلى غير ذلك مما هو داخل تحت هذا المعنى[2].

ثم إن موضوع الولاء والبراء ليس خاصًّا بالكفار، بل هو

---

(١) «شرح رسالة الدلائل» للشيخ صالح الفوزان ص(٢١).

(٢) انظر: المصدر السابق، «أضواء البيان» (٤/٣٨١)، «الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة» للمودودي ص(١٦٣ ـ ١٦٤).

. . . .

شامل ـ أيضًا ـ للعصاة من المؤمنين الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ لأن العاصي يجتمع فيه الحب والبغض، فيُحَبُّ لما فيه من الإيمان والخير، ويُبغض لما فيه من المعصية والشر، ومحبتهم تقتضي مناصحتهم والإنكار عليهم، وإقامة الحدود والتعزيرات عليهم؛ حتى يكفُّوا عن معاصيهم[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسُنّة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة.. وهذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السُّنَّة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه...)[٢]، وقال ـ أيضًا ـ: (الواجب موالاة أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبُغض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق المِلِّي يعطى من الموالاة بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداة بقدر فسقه)[٣].

وينبغي أن يُعرف أن هناك فرقًا بين موالاة الكفار ومداراتهم، فالموالاة كما تقدم، وأما المداراة فهي الملاينة والملاطفة، يقال: دارأته ـ بالهمز ـ وداريته ـ بلا همز ـ: إذا اتقيته ولَايَنْتَهُ.

والمداراة: ملاينة الناس، ومعاشرتهم بالحسنى، من غير ثلم

---

(١) انظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للشيخ صالح الفوزان ص(٣١٨).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠٩/٢٨).
(٣) المصدر السابق (٥٧٨/٢٨).

. . . .

في الدين من أي جهة من الجهات، والإغضاء عن مخالفتهم في بعض الأوقات[1].

وقد ذكر أهل العلم أنه لا بأس بمداراة الكفار، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين، واستفادوا ذلك من قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال الألوسي: (في الآية دليل على مشروعية التقية، وعرَّفوها بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء، والعدو قسمان: **الأول**: من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين، كالكافر والمسلم، **والثاني**: من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والمُلك والإمارة... وعَدَّ قوم من باب التقية: مداراةَ الكفار والفَسَقة والظَّلَمة، وإلانةَ الكلام لهم، أو التبسُّمَ في وجوههم، والانبساطَ معهم، وإعطاءهم لكفِّ أذاهم وقطع لسانهم وصيانةً لِلعِرضِ منهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها، بل هي سُنَّة وأمر مشروع...)[2].

(إلا أن هذه التقية لا يُحسنها كل أحد من المسلمين، ولا يضبطها على الوجه المشروع بحيث لا يميل بها عن جادة الإسلام، إلا عارف بموارد الشرع وما تقتضيه المصلحة الدينية، متقلِّب في أدوار الحياة، مجرِّب، سائسٌ للأمور، عالم بأحوال الزمن وحوائجه

---

(١) انظر: «تاج العروس» (٢٢٤/١)، «روضة العقلاء» ص(٧٠)، «الموسوعة الفقهية» (١٨٥/١٣).

(٢) «روح المعاني» (١٢١/٣ ـ ١٢٢).

....

التي تدعو إلى معاملة الغير ومعاشرته، مقتصر في ذلك على قدر الضرورة، فلا ينبغي أن يتقىٰ منه إلا بقدر ما تدعو إليه حاجته أو حاجة من يعنيه أمره من إخوانه المسلمين، فإن الخوض في التقية والدخول في أخطارها أمر صعب ربما جرَّ المتقي بها إلى ارتكاب ما لا يحتاج إليه منها، والدخول في أمور قد نهى الشرع عنها)[١].



(١) «القول المبين في حكم المعاملة بين الأجانب والمسلمين» ص(٦٩). وانظر: «تفسير القرطبي» (٥٧/٤)، «منهاج السُّنَّة» (٤٢٣/٦).

اعلمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الحنيفيَّةَ مِلَّةَ إبراهيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. ....

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملَّة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين)** هذا الكلام من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع تقرير توحيد الألوهية، وقد بدأ هذا التقرير بالدعاء لك أيها القارئ أو المستمع، **فقال**: **(اعلم أرشدك الله لطاعته)**، ومعنى أرشدك؛ أي: دلَّك وهداك إلى الرشد، والرشد: هو الاستقامة على طريق الحق، وهو ضد الغي؛ لأن الغَيَّ هو الضلال الذي يفضي بصاحبه ـ والعياذ بالله ـ إلى الخسران، والطاعة: هي موافقة أمر الشرع بفعل المأمور واجتناب المحظور، ومتى أرشد الله عبده إلى طاعته، فقد ظفر بعزِّ الدنيا وسعادة الآخرة.

وقد جاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يا علي قُل: اللَّهمَّ اهدني وسدِّدني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسَّدادَ سداد السَّهم**»[1].

والحنيفية: هي ملة إبراهيم، فهي عطف بيان، وملة إبراهيم هي الحنيفية، ولهذا جَمَعَ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينهما، وأصل الحنيفية مأخوذة من الحَنَفِ، ومعناه: المَيْل، فالحنيف: هو المائل عن الشرك قصدًا وإخلاصًا إلى التوحيد، والحنيف هو المقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُعْرِضُ عن كل ما سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، والقانت: هو الخاشع المطيع[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٥).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/٥٣٠).

....

أما الملة: فهي بمعنى الدين، وهي اسم لكل ما شرعه الله ﷻ لعباده على ألسنة أنبيائه.

قوله: (أنْ تعبد الله وحده مخلصًا له الدين) هذا بيان لحقيقة ملة إبراهيم، فهو خبر (أن) في **قوله**: (أنَّ الحنيفية ملة إبراهيم)، فـ (أنْ) وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر (أنَّ)، والتقدير: اعلم أن الحنيفيةَ ملةَ إبراهيم عبادةُ الله تعالى وحده بإخلاص.

وأصل العبادة: التذلل والخضوع، تقول العرب: طريقٌ معبَّد؛ أي: مذلَّل، مهيَّأ لسلوك الناس. قال العلماء: وسُمِّيت الوظائف التي طلبها الله تعالى من المكلفين عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها متذلِّلين خاضعين لله ﷻ.

وأما معناها الذي يبين متعلّقاتها، فهو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه القيم: «العبودية»: (العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)[(١)] وذلك مثل: الصلاة والزكاة والصيام والحج والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والاستغاثة ونحو ذلك، مما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (الحنيفية ملة ـ إبراهيم ـ تتناول كل من عَبَدَ الله وحده بما أمره به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ

(١) «العبودية» ص(٣٨).

. . . .

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢]، فكل الأنبياء الذين بُعثوا بعد إبراهيم وأتباعهم على ملة إبراهيم، لكن محمد ﷺ أولاهم به، وشرعه أقرب إلى شرع إبراهيم من وجوهٍ متعددة؛ كأمره بحج البيت وغيره، ... وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧] نفى أن يكون على ما اختص به شرع التوراة والإنجيل، وليس على ملة إبراهيم، بل ملة إبراهيم أن يعبد الله وحده بما أمر، ومحمد أمر بملة إبراهيم، وأمر بها أن يعبد الله وحده، ورفع به الآصار والأغلال التي كانت على أهل الكتاب ولم تكن مشروعة لإبراهيم، فكان الشرع الذي بُعث به أولى بإبراهيم)[١].

وقوله: **(مخلصًا له الدين)**. الإخلاص: هو أن يقصد العبد بعمله رضا ربه وثوابه، لا غرضًا آخر من رئاسة أو جاه أو شيء من حطام الدنيا، فإذا قام العبد بالعبادة مريدًا بذلك: رضا الله ﷻ، الذي هو المستحق للعبادة، وقصد بذلك الحصول على الثواب تحقق الإخلاص، وقصدُ ثواب الله تعالى ونيل رضوانه وجنته لا يخل بالإخلاص، بل يُذم من يعبد الله تعالى وهو لا يريد الثواب، وهي طريقة من طرق الصوفية، وهي مخالفة لما دلَّت عليه النصوص الشرعية من أن الإنسان يقصد بعبادته وجه الله تعالى والوصول إلى رضوانه وطلب ثوابه وجنته.

---

(١) «تفسير آيات أشكلت» (٢٧١/١ ـ ٢٧٩).

وبذلك أمَرَ اللهُ جميعَ الناسِ..................................

وللإخلاص ثمرات عظيمة:

١ ـ أنه بتحقيق الإنسان لتوحيد ربه وإخلاصه العبودية له تكمل له الطاعة ويخرج من قلبه تأله ما يهواه.

٢ ـ من أخلص في عبادة ربه صُرفت عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فعلَّل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباده المُخْلِصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله، واختارهم، واختصَّهم لنفسه.

٣ ـ من أخلص في عبادة ربه فهو في حرز من الشيطان. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال الشيطان: ﴿...فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

٤ ـ ثبت في حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[(١)].

قوله: (**وبذلك**) اسم الإشارة يعود إلى العبادة الخالصة؛ أي: بإخلاص العبادة (**أمر الله جميع الناس**) بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٦٠ ـ ٢٦١)، والحديث أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٥٤)، (٣٣).

وخَلَقَهُمْ لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾.

ومَعْنى (يَعْبُدُونِ): يُوَحِّدُونِي ....

قوله: (وخلقهم لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦])؛ أي: خلقهم لعبادته، وهذه الآية العظيمة بيَّنت الحكمة من خلق الجن والإنس، وهي العبادة، فإن الله جلَّ وعلا ما خلق الخلق إلا لأجل أن يأمرهم بالعبادة، فمنهم من أطاع وأذعن فعَبَدَ الله، ومنهم من عصى وعاند فأشرك مع الله غيره.

والجن: عالَم غيبي قائم بذاته، يختلف عن الإنس؛ لأنه مخلوق من نار، والإنس من طين، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمٰن: ١٤، ١٥] سُمُّوا جِنًّا لاجتنانهم؛ أي: استتارهم عن العيون، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧][(١)]، واجتماع الجيم مع حرف النون في لغة العرب يدل على الستر.

والإنس: البشر، الواحد (إنسي)، سموا بذلك؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، والأنس ـ بتثليث الهمزة ـ الطمأنينة[(٢)].

قوله: (ومعنى (يَعْبُدُونِ): يُوَحِّدُوني) هذا تفسير لمعنى العبادة في الآية الكريمة، فمعنى (يعبدون)؛ أي: يفردونني بالعبادة، والإفراد بالعبادة معناه: التوحيد، وقد ورد في الحديث القدسي عن

---

(١) راجع كتاب «عالم الجن والشياطين» للدكتور عمر الأشقر.
(٢) «لسان العرب» (٦/١٠).

وأَعْظَمُ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ التوحيدُ، وهو إِفْرَادُ اللهِ بالعبادةِ

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: يا ابن آدم، تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأَسُدَّ فقرك، وإلا تفعل، ملأت صدرك شغلًا، ولم أَسُدَّ فقرك**»[١]، فهذا الحديث يدل على أن الوظيفة التي أنيطت بهذا المكلف: هي عبادة الله والتفرغ لما خُلق لأجله، وفي ذلك سعادة الدنيا، وفلاح الآخرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (من تدبَّر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عمومًا وخصوصًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[٢].

قوله: **(وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة)** التوحيد في اللغة: مصدر وَحَّدَ يوحِّد توحيدًا؛ أي: جعله واحدًا لا ثاني له، والمصنف رحمه الله عرَّف التوحيد بأنه: إفراد الله بالعبادة، مثل: الدعاء، والخوف، والذبح، والنذر، وغير ذلك. وهو يريد بهذا التوحيدَ الذي بُعثت الرسل لتحقيقه، وإلا فهو بالمعنى العام: إفراد الله بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وهذه

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٦)، وابن ماجه (٤١٠٧)، وأحمد (٣٢١/١٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وقد وقع عند الترمذي: «**ملأت يديك شغلًا**»، وفي معناه حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أخرجه الحاكم (٣٢٦/٤)، والطبراني (٥٠٠/٢٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٥/١٥).

وأَعْظَمُ ما نَهَىٰ عنه الشِّرْكُ، ....

أقسام التوحيد الثلاثة، فيكون تعريف المصنف هنا للتوحيد بأنه إفراد الله بالعبادة إنما هو لبيان التوحيد الذي حصل به النزاع والجدال، والذي بعثت لأجله الرسل وأنزلت له الكتب، وشُرع من أجله الجهاد، وهو توحيد الألوهية، ومعنى **(إفراد الله بالعبادة)**؛ أي: قولًا وفعلًا وقصدًا، فيفرد الله بالأقوال والأفعال والمقاصد، والمراد بالعبادة هنا في كلام المصنف: العبادة الشرعية، وهي الخضوع لأمر الله الشرعي، وأمر الله الشرعي هو القيام بالتكاليف.

أما العبادة الكونية فهي الخضوع لأمر الله الكوني، والعبادة الكونية عامة لكل مخلوق؛ فالذي ينقاد لأقدار الله تعالى داخل في المعنى الثاني للعبادة، وهي العبادة الكونية، والفرق بين أمر الله الكوني وأمر الله الشرعي، أن أمر الله الشرعي: ما شرعه الله لعباده من التكاليف، وأمر الله الكوني: ما يقضيه الله ﷻ ويقدره على عباده مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، من مرض أو فقر أو فقد محبوب ونحو ذلك، والدليل على أن العبادة تكون كونية قول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فهذه هي العبودية الكونية التي لا تخص المؤمن بل هي عامة لكل مخلوق، أما العبادة المقصودة في هذا الباب ـ التي هي معنى التوحيد ـ: فهي العبادة الشرعية التي لا ينقاد لها إلا المؤمن البر.

قوله: **(وأعظم ما نهى عنه: الشرك)** الشرك في الأصل بمعنى: النصيب؛ فمعنى: أشرك مع الله غيره؛ أي: جعل لغيره نصيبًا،

وهو دَعْوَةُ غيرِهِ معه، ....

وإنما كان الشرك أعظم ما نهى الله عنه؛ لأن أعظم الحقوق حق الله تعالى، وحق الله تعالى إفراده بالعبادة، فإذا أشرك مع الله غيره ضيع أعظم الحقوق، وقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت ـ أو سئل ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذنب عند الله أعظم؟ ـ وفي لفظ: أكبر ـ قال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك...**»[1]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: «**أتدري ما حق الله على عباده؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وسلم: «**حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا...**»[2]، فدل هذا على أن الله سبحانه وتعالى له حق على العباد، فمن ضيع هذا الحق فقد وقع في تضييع أعظم الحقوق.

قوله: (وهو دعوة غيره معه) هذا تعريف الشرك، وهو أن يجعل مع الله إلٰهًا آخر مَلَكًا أو رسولًا أو وليًّا أو حجرًا أو بشرًا يعبده كما يعبد الله، وذلك بدعائه والاستعانة به والذبح له والنذر له وغير ذلك من أنواع العبادة، هذا هو الشرك الأكبر، **وهو أربعة أنواع:**

١ ـ **شرك الدعاء**: وهو أن يضرع إلى غير الله ـ تعالى ـ من نبي أو مَلَك أو ولي بقربة من القرب ـ صلاة أو استغاثة أو استعانة ـ أو يدعو ميتًا أو غائبًا أو نحو ذلك مما هو من اختصاص الله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٦٨)، ومسلم (٤٨)، (٣٠).

. . . .

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢ ـ **شرك النية والإرادة والقصد**: بأن يأتي بأصل العبادة رياءً أو لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها، والدليل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئًا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته...)[١].

واعتبار شرك النية والقصد من الشرك الأكبر محمول على ما ذكرنا، وهو أن يأتي بأصل العمل رياء أو لأجل الدنيا، ولم يكن مريدًا وجه الله تعالى والدار الآخرة، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن وإن كان ضعيف الإيمان لا بد أن يريد الله والدار الآخرة. لكن إن تساوى القصدان أو تقاربا فهذا نقص في الإيمان والتوحيد، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص، وإن عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصًا تامًّا وأخذ عليه جُعْلًا معلومًا يستعين به على العمل والدين فهذا لا يضر؛ لأن الله تعالى جعل في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءًا

---

(١) «الجواب الكافي» ص(١١٥).

. . . .

كبيرًا يصرف في مصالح المسلمين[(١)].

٣ ـ **شرك الطاعة**: وهو أن يتخذ له مُشَرِّعًا سوى الله تعالى، أو يتخذ شريكًا لله في التشريع، فيرضى بحكمه، ويدين به في التحليل والتحريم عبادة وتقربًا وقضاءً وفصلًا في الخصومات، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، ولما سمع عدي بن حاتم رضي الله عنه النبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية، قال: إنا لسنا نعبدهم، قال: «**أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرم الله فتحلُّونه؟**» قال: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»[(٢)].

٤ ـ **شرك المحبة**: وهو اتخاذ الأنداد من الخلق يحبهم كحب الله تعالى؛ فيقدم طاعتهم على طاعته، ويلهج بذكرهم ودعائهم، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٥][(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله: (ها هنا أربعة أنواع من المحبة يجب

---

(١) «القول السديد» ص(١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير (١١٤/١٠) و«البيهقي» (١١٦/١٠)، وغيرهم، وقد حسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الإيمان» ص(٦٤)، والألباني في «غاية المرام» (رقم٦)، وفي «صحيح الترمذي» (٥٦/٣)، وفي سنده غطيف بن أعين. ذكره الدارقطني في «الضعفاء» ص(٣٢٤)، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٣١١/٧). وللحديث شاهد من حديث حذيفة رضي الله عنه موقوفًا، وسنده ضعيف. انظر: «تفسير ابن جرير» (١٠/ ١١٤)، «الدر المنثور» (٧/ ٣٢٣).

(٣) انظر: «مجموعة التوحيد» (الرسالة الثالثة) ص(٣٤٦).

. . . .

التفريق بينها، وإنما ضلَّ من ضلَّ بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعبَّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحبه الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحبُّ الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحبه الله، ولا يستقيم محبة ما يحبه الله إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئًا مع الله، لا لله، ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين)[١].

فهذه الأنواع الأربعة هي أنواع الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر فهو كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركًا: كالحلف بغير الله ـ تعالى ـ والرياء اليسير في أفعال العبادات وأقوالها وبعض العبارات مثل: (ما شاء الله وشئت)، ونحوها مما فيه تشريك بين الله وخلقه، مثل: (لولا الله وفلان)، و(ما لي إلا الله وأنت)، (وأنا متوكل على الله وعليك)، (ولولا أنت لم يكن كذا)... وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب قائله ومقصده.

---

(١) «الجواب الكافي» ص(١٦٤).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]) هذه الآية جمعت بين الأمرين: الأمر بالعبادة، والنهي عن الشرك، مما يدل على أن العبادة لا تتم إلا باجتناب الشرك قليله وكثيره؛ لأن (شيئًا) نكرة في سياق النهي فتفيد العموم؛ أي: لا تشركوا به شركًا أصغر ولا أكبر، لا مَلَكًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا غيرهم من المخلوقين. كما أنه تعالى لم يخص نوعًا من أنواع العبادة لا دعاء ولا صلاة ولا توكلًا ولا غيرها؛ ليعم جميع أنواع العبادة.

والشرك الأكبر مخرج من الملة، وقد حرم الله الجنة على صاحبه؛ إذ ليس معه شيء من التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

وأما الأصغر فلا يخرج من الملة، لكنه وسيلة إلى الأكبر، وصاحبه على خطر عظيم، فعلى العبد أن يحذر الشرك مطلقًا، فإن بعض العلماء يرى أن الآية المذكورة عامة في الشرك الأصغر والأكبر، وأن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ أي: ما هو أقل من الشرك، والله أعلم(١).



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦٦٣/١١)، و«جامع الرسائل» (٢٥٤/٢)، و«القول المفيد» (١١٠/١).

فإذا قيل لك: ما الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرِفتُها؟ فقلْ: معرفَةُ العبد رَبَّهُ ودِينَهُ ونبِيَّه محمدًا ﷺ.

انتقل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تفصيل ما أُجمل من الأصول الثلاثة، وهي: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه ﷺ، وأما ما تقدم من الكلام فهو من باب التوطئة والتمهيد لما سيأتي، أو يكون ـ كما قال بعض الشُّراح ـ: مما ألحقه بعض تلاميذ الشيخ بهذه الأصول، مستفادًا من كلامه في موضع آخر[(١)]، وعلى أي حال فإن ما تقدم يعتبر من الأسس الطيبة النافعة التي يستفاد منها في تقرير الأصول الثلاثة.

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربَّه ودينه ونبيَّه محمدًا ﷺ)** طريقة السؤال والجواب طريقة سلكها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كثير من رسائله، وهي نافعة في تقرير المعلومات وسرعة فهمها، والطالب يدرك المعاني ويفهمها إذا ألقيت عليه بطريقة السؤال والجواب؛ لأن المخاطَب إذا طُرِحَ عليه السؤال استعد وتهيأ لفهم الجواب، وهذه تسمَّى عند علماء التربية وطرق التدريس بالطريقة الحوارية، وهم ينسبونها إلى من ألَّف في ذلك من الغربيين وغيرهم ـ ونسوا أن الطريقة الحوارية كان يسلكها النبي ﷺ أحيانًا مع أصحابه، فكان يطرح عليهم السؤال؛ لأجل أن تتهيأ أذهانهم للجواب، كما تقدم؛ ولهذا نقول: إن وسائل الإيضاح التي تستعمل في طرق التدريس وإن جاءت عن طريق الغربيين لكنها بضاعتنا ردت إلينا، وهي طريقة نافعة في التعليم، لا سيما في المراحل الأُول من

---

(١) انظر: «حاشية ثلاثة الأصول» لابن قاسم ص(٢٥).

فإذا قيل لك: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذي ربَّانِي

التعليم، ليستفيد الطلاب وتتهيأ أذهانهم؛ لأن المدرس إذا ألقى عليهم السؤال استعدوا لتلقي الجواب، فيتمكن من الأذهان، وحتى في الدروس العامة والمحاضرات ينبغي أن تسلك هذه الطريقة ـ أحيانًا ـ؛ لأن الإلقاء المستمر قد يكون مملًّا، لا سيما إذا طال الوقت.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذه المسألة بصيغة السؤال والجواب لأجل أن ينتبه لها الإنسان؛ لأنها مسألة عظيمة، فإن هذه الأصول الثلاثة هي التي يُسأل عنها العبد في قبره، وهذا يدلُّك على أهميتها وقيمتها، وأن الإنسان يعرف معناها أولًا ويعمل بمقتضاها ثانيًا، لعل الله تعالى أن يوفقه للجواب الصحيح في القبر إذا ما قال له المَلَكان: مَن ربُّك؟ فيقول: ربي الله، ما دينك؟ ديني الإسلام، ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ هو محمد عبد الله ورسوله... إلخ.

فمن عرف هذه الأصول الثلاثة وعمل بمقتضاها فهو أهل لأن يوفقه الله تعالى في جوابه، كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقد ذكر الأصول الثلاثة إجمالًا، ثم بدأ في تفصيلها، وهذه ـ أيضًا ـ من الطرق العلمية الجيدة؛ لأن النفوس إذا عرفت الشيء إجمالًا تطلعت إلى معرفته تفصيلًا، والتفصيل بعد الإجمال من مقاصد البلغاء، كما في علم المعاني.

قوله: **(فإذا قيل لك: من ربك؟)** هذا هو الأصل الأول، والجواب: **(فقل: ربي الله الذي رباني)** وأصل الرب في اللغة

ورَبَّى جَمِيعَ العالَمين بِنِعْمَتِهِ، وهو معبودِي، ليس لي معبودٌ سواهُ، ....

بمعنى: المربِّي، ومن هذه الكلمة تشعَّبت معانٍ أخرى لكلمة الرب من المالك والمدبر والمتصرف والمتعهد، والمصنف يريد المعنى الأول؛ لأنه **قال**: (الذي ربَّاني)، فانتقل إلى المعنى الأساسي للكلمة الذي هو التربية؛ ومعنى رباني؛ أي: خلقني وأوجدني، ثم رباني بنعمه الظاهرة والباطنة.

وقوله: (وربَّى جميع العالَمين) هذا تعميم؛ أي: ربَّاني أنا وربَّى جميع العالمين، **وقوله**: (بنعمته)؛ أي: ابتداء من الغذاء الذي يصل إليَّ وأنا في بطن أمي إلى أن يُجري عليَّ الأرزاق بعد خروجي منه؛ كما ورد في الحديث الصحيح في المَلَك الذي يؤمر بأربع بالنسبة للجنين، ومنها «**بكتب رزقه**»[(١)]، فالله ـ جلَّ وعلا ـ ينعم على هذا العبد منذ أن يخلقه الإنعام الذي يصل إليه في بطن أمه بدون حول منه ولا قوة، والإنعام الذي يحصل له بعد خروجه إلى الدنيا عندما يكبر ويكدح ويعيش، فيجري الله ﷻ له من الأرزاق بالأسباب ما قضاه وقدره له.

وقوله: (وهو معبودي، ليس لي معبودٌ سواه) هذا مرتب على الكلام السابق؛ يعني: إذا كان هو الذي رباني لا غيره وربَّى جميع العالمين لا غيره، فيترتب على هذا أن يكون هو المستحق للعبادة، ولهذا **قال**: (وهو معبودي، ليس لي معبود سواه)؛ لأن الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عالَمٌ، ....

يستحق أن يكون معبودًا هو القادر على الخلق، ومن لا يقدر على الخلق لا يستحق أن يكون معبودًا، وقد ذكر الله تعالى أوصاف الآلهة التي لا تصلح للعبادة في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، فذكر الله سبحانه سبعة أوصاف، كلها أوصاف نقص تدل على أن هذه الأوصاف التي وجدت في الآلهة لا تصلح أن تكون الآلهة معها معبودة؛ لأن المعبود هو الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت، ولهذا قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا استفهام توبيخ وتقريع.

قوله: **(والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾** [الفاتحة: ٢]) هذا الدليل على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة لكونه سبحانه وتعالى مربّيًا لجميع العالمين، و(﴿ٱلْحَمْدُ﴾): هو الاعتراف للمحمود بصفات الكمال مع محبته وتعظيمه، وهذا قيد أساسي، فلو اعترف بالمحامد والأوصاف وذكرها، ولكن بدون محبة ولا تعظيم؛ فإنه لا يسمَّى حامدًا، **وقوله:** (﴿لِلَّهِ﴾) اللام هذه تسمَّى لام الاستحقاق، **وقوله:** (﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) مَرَّ أن المعنى: خالقهم ومدبر شؤونهم، المتصرف بأحوالهم وأرزاقهم، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، **وقوله:** **(وكل ما سوى الله عالَمٌ)** فيقال: عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات، وسُمِّي العالم

وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ.

فإذا قيل لك: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فقلْ: بآياتِهِ ومخلوقاتِهِ،

عالمًا؛ لأنه علامة على خالقه وموجده ومالكه... **(وأنا واحد من ذلك العالم)**؛ أي: أنا أيها الإنسان المتكلم بهذا الكلام الذي أقول: **(ربي الله الذي رباني)** **(أنا واحد من ذلك العالم)** فأنا مربوب لله تعالى؛ لأن الله تعالى هو ربي، ومعنى مربوب لله تعالى؛ أي: مخلوق لله تعالى، وهو الذي رباني ﷻ.

وقوله: **(فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟)** هذا السؤال الثاني بعد السؤال الأول: من ربك؟ أي: بم استدللت على معرفتك ربك؟ **(فقل: بآياته ومخلوقاته)** فهذا هو الدليل على أنه هو الذي خلقني، وهو الذي رزقني، وهو معبودي، ليس لي معبود سواه؛ والآية في اللغة لها معانٍ كثيرة، منها: البرهان والدليل، **وآيات الله نوعان:**

١ ـ **آيات شرعية**، ويراد بها: الوحي الذي جاءت به الرسل، فهو آية من آيات الله، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩]، فإن قيل: كيف كان الوحي دليلًا وبرهانًا على الله تعالى؟ فالجواب:

أولًا: أن هذا الوحي الذي جاءت به الرسل جاء وحيًا متكاملًا منتظمًا لا تناقض فيه ولا اضطراب، قال تعالى عن القرآن: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فالقرآن الكريم دليل على وجود الرب العظيم، وهو دليل من الآيات الشرعية.

ثانيًا: أن هذه الآيات الشرعية قامت بمصالح العباد، وهي

ومِنْ آياتِهِ: اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاته: السَّمٰوَاتُ السبعُ، ....

كفيلة بسعادتهم في دينهم ودنياهم، وأوضح مثال: شريعة محمد ﷺ، فإن الله جلَّ وعلا قد شرع لنا في هذا القرآن الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ ما هو كفيل بمصالحنا، وما من مشكلة أو معضلة إلا وفي الشريعة الإسلامية حل لها، سواء أكان هذا الحل عن طريق الكليات أم عن طريق الجزئيات.

٢ ـ **آيات كونية**: والآيات الكونية هي المخلوقات، مثل: السماوات والأرض والإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: **(فقل: بآياته ومخلوقاته)** فإذا فسرنا الآيات: بالآيات الشرعية والكونية؛ فإنه يدخل **قوله**: **(ومخلوقاته)** تحت **قوله**: **(بآياته)**؛ لأن المخلوقات هي الآيات الكونية، فيكون كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من باب عطف الخاص على العام على سبيل الاهتمام بالخاص، فإنه أفرد المخلوقات مع أنها داخلة في الآيات للاهتمام بها؛ لأنها مرئية يدركها العالِم وغير العالِم. أما إذا فسرنا الآيات بالآيات الشرعية فقط، فإننا نفسر المخلوقات بالآيات الكونية، ويصير من باب عطف المغاير[1].

وظاهر كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدل على أنه ما قصد الآيات الشرعية بل أراد بالآيات والمخلوقات: الكونية منها، بدليل أنه **قال**: **(ومن آياته: الليل والنهار والشمس والقمر، ومن مخلوقاته: السمٰوات السبع**

(١) انظر: «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ محمد بن عثيمين ص(٤٧).

والأرضونَ السبعُ، ومَن فيهنَّ، وما بينهما، ....

والأرَضون السبع)، ويكون خصَّ الآيات الكونية بالذكر؛ لما تقدم، لكن ثمة فرق بين الآيات والخلوقات، فالآيات أظهر دلالة من المخلوقات؛ لأنها تذهب وتجيء، أما المخلوقات فهي ثابتة لا تتغير[(١)].

قوله: (ومن آياته: الليل والنهار)؛ أي: ومن الأدلة والبراهين على وجود الباري تعالى وتفرده بالربوبية والإلٰهية وجود الليل والنهار، وذلك من وجوه:

أولًا: تعاقبهما، فهذا يذهب، وهذا يأتي بعده بانتظام كامل وتناسق بديع.

ثانيًا: اختلافهما بالطول والقصر، فإن هذا من آيات الله، ولو فرض أن الليل ما يزيد أبدًا والنهار ما يزيد أبدًا لكان هذا من آيات الله أيضًا، ولكن كون الليل يزيد في الشتاء، ويقصر في الصيف، والنهار يزيد في الصيف، ويقصر في الشتاء، هذا أيضًا من آيات الله ﷻ.

والليل والنهار من نعم الباري على عباده، فلو كان الليل سرمدًا لتعطلت مصالح العباد ولو كان فيه أنوارٌ؛ لأن جهد الإنسان يصل إلى درجة قليلة في الليل، فلا تتحقق مصالح العباد ولا تقوم إلا بالنهار، ولو لم يوجد ليل لمات كثير ممن انهمكوا في الدنيا؛ لأنه لا يوجد ليل يطرحهم فينامون. لكن هذا الليل نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على العباد؛ لأن الناس يأوون إلى منازلهم وينامون ويستريحون، فإذا قاموا من الغد قاموا إلى نهار جديد وبجهد جديد.

(١) «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ صالح آل الشيخ ص(٦١ ـ ٦٣)

....

والحاصل أن هذه آيات عظيمة من آيات الله تعالى، ولكن الإنسان غافل عن تدبرها، ولهذا فإن الله تعالى قد كرر ذكر هذه الآيات في سور من القرآن الكريم، يذكر الليل والنهار والشمس والقمر وخلق السماوات والأرض؛ لأجل أن الإنسان يدوم ذكره ويبقى تذكره، فلا يغفل ولا ينسى، والله المستعان.

قوله: **(والشمس والقمر)**؛ أي: ومن آيات الله الدالة على وجوده سبحانه وتفرده بالربوبية والإلٰهية: الشمس والقمر، وذلك من وجوه:

أولًا: جريانهما باستمرار منذ أن خلق الله تعالى الشمس والقمر إلى أن يأذن الله تعالى بخراب هذا الكون، والشمس والقمر يجريان باستمرار كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]؛ أي: دائبين في السير بأمر الله تعالى[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]، وفي قراءة: ﴿لا مستقر لها﴾[(٢)]؛ أي: إن الشمس ليس لها مستقر، إنما هي دائمًا تسير إلى أن يأذن الله تعالى بخراب الدنيا، ولهذا إذا غربت على أُناس طلعت على آخرين، وهذا لا ينافي ما ورد في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخرُّ ساجدة...**» الحديث[(٣)]؛ لأنه

---

(١) فتح القدير (٣/١١٠).

(٢) انظر: «المحْتَسَب» لابن جني (٢/٢١٢)، «تفسير ابن كثير» (٦/٥٦٢)، وهذه القراءة شاذة، ولعلَّ من ذكرها من المفسرين ذكرها على أنها تفسير.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٠٢)، ومسلم (١٥٩).

....

يمكن أنها إذا غربت عن أناس تسجد تحت العرش بالنسبة لغروبها عنهم، وهي مستمرة في جريانها[(١)].

ثانيًا: الانتظام البديع، فالشمس تسير في فلكها في مدة سنة، وهي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه، والقمر يبديه الله كالخيط، ثم يتزايد نوره ويتكامل حتى ينتهي إلى إبداره وكماله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]؛ أي: لا يمكن أن توجد الشمس في الليل فتدرك القمر، ولا الليل سابق النهار فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه، ﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾؛ أي: يترددون على الدوام، فهذا دليل على عظمة الخالق وقدرته وحكمته.

ثالثًا: ما فيهما من المنافع العظيمة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وفي الشمس منافع عظيمة للعلويات: فإن القمر يستمد نوره من الشمس، وللسفليات: من الإنسان والحيوان والنبات والبحار وغير ذلك، ولولا طلوع الشمس وغروبها لما عُرِفَ الليل والنهار، ولأطبق الظلام أو الضياء على العالم، وفي سير القمر تظهر مواقيت العباد في معاشهم وعبادتهم ومناسكهم، فتميزت به

(١) انظر: «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» للشيخ عبد الله الغنيمان (١/٤٠٨)، «شرح السُّنَّة» للبغوي (١٥/٩٥).

والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ

الأشهر والسنون وقام حساب العَالَم، مع ما في ذلك من الحكم والآيات التي لا يحصيها إلا الله تعالى[1].

قوله: (ومن مخلوقاته السمٰوات السبع)؛ أي: ومن أعظم مخلوقات الله تعالى الدالة على عظمته ووحدانيته: السمٰوات السبع، وعلوها وسعتها واستدارتها، وعظم خلقها وبنائها.

قوله: (والأرضون السبع)؛ أي: ومن مخلوقاته العظيمة الأرضون السبع، فإن الله تعالى جعل الأرض فراشًا ومهادًا وذلَّلها لعباده، وجعل فيها سبلًا، وجعل فيها أرزاقهم ومعايشهم، وقد أكثر الله تعالى من ذكر السمٰوات والأرض في كتابه الكريم، ودعا عباده إلى النظر إليهما والتفكر في خلقهما. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

قوله: (ومن فيهن)؛ أي: من المخلوقات العظيمة التي لا يعلمها إلَّا خالقها ﷻ **(وما بينهما)** أيضًا من المخلوقات العظيمة.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧])؛ يعني: وإن كان الشمس والقمر من المخلوقات

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢٠٧/١، وما بعدها).

إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ....

العظيمة؛ فإن هذا لا يقتضي أن يُسْجَدَ لهما؛ لأنها مخلوقان مدبَّران مسخَّران (﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾)؛ أي: اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات وإن كبر جِرمها وكثرت مصالحها، فإن ذلك ليس منها، وإنما هو من خالقها تبارك وتعالى: (﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]) فخصُّوه بالعبادة وإخلاص الدين له[١].

قوله: (**وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]) هذا فيه إخبار من الله تعالى بأنه خلق هذا العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام. **أولها:** الأحد، **وآخرها:** الجمعة[٢]. منها أربعة أيام للأرض، ويومان

(١) «تفسير ابن سعدي» ص(٧٥٠).

(٢) أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق اللهُ التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل**» فهذا الحديث أخرجه مسلم (٢٧٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠/٢٠)، وأحمد (١٤/٨٢)، وهو حديث معلول، قدح فيه أئمة الحديث: علي بن المديني، والبخاري، وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام أبي هريرة رضي الله عنه أخذه عن كعب الأحبار، وقد اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعًا، ثم هو مخالف للقرآن، الذي دل على أن الله خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام.

وقد دافع عن هذا الحديث الشيخ عبد الرحمٰن المعلمي في كتابه: «الأنوار الكاشفة» (٢٦١)، ثم جاء بعده الألباني كما في «الصحيحة» (١٨٣٣) وبيَّن أنه =

. . . .

للسماء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]، ويكون معنى قوله سبحانه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في تتمة أربعة أيام، لا أنها أربعة أيام مستقلة عن اليومين الأولين، وإلا لكانت الأيام ثمانية(١).

والظاهر أن هذه الأيام كأيامنا التي نعرف؛ لأن الله تعالى ذكرها منكَّرةً، فتُحمل على ما كان معروفًا، ولو شاء الله تعالى لخلقها في لحظة، ولكنه ربط المسبَّبات بأسبابها، كما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى(٢).

= صحيح وأنه غير مخالف للقرآن، وأن الأيام السبعة فيه غير الأيام الستة في القرآن، وأن الحديث يتحدث عن شيء من التفصيل الذي أجراه الله على الأرض، فهو يزيد على القرآن ولا يخالفه، وقد دل على هذا الجمع حديث أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢١٣/١٠) من طريق الأخضر بن عجلان، وقد وثقه ابن معين والبخاري والنسائي وابن حبان وغيرهم. لكن كلام كبار الأئمة مقدم على كلام من بعدهم.

وانظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي ص(٣٨٣ ـ ٣٨٤)، «تفسير ابن كثير» (٩٩/١)، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية [جامعة الكويت]، العدد «التاسع عشر» «الأحاديث المشكلة الواردة في تفسر القرآن» ص(٢٤٣).

(١) انظر: «التوحيد» لابن منده (١٨٦/١)، و«تفسير ابن كثير» (١٥٥/٧)، و«أضواء البيان» (١١٦/٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٢٢/٣)، و«شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ص(٤٤).

ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ..................................

وقوله تعالى: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾)؛ أي: علا وارتفع، والعرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وأما عرش الرحمٰن فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق السمٰوات كالقبة، وقد وصفه الله تعالى في القرآن بالعظمة والكرم والمجد، ولا يعلم قدره وصفته إلا الله تعالى[(١)].

وفي الآية إثبات استواء الله على عرشه على ما يليق بجلاله وعظمته، وأدلة علو الله على خلقه واستوائه على عرشه أكثر من أن تحصر، وقد أجمع المسلمون على ذلك.

وقوله تعالى: (﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾)؛ أي: يغطي كل واحد منهما الآخر، فيذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا (﴿حَثِيثًا﴾)؛ أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا.

وقوله تعالى: (﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]) هذا معطوف على (﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾)؛ يعني: خلق السمٰوات والأرض وخلق الشمس والقمر والنجوم حالة كونها مسخَّرات؛ ومعنى: (﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾)؛ أي: مُذَلَّلاتٍ جارية في مجاريها بتسخير الله تعالى.

(١) انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي ص(٣٩٢)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٢/٢٦٦)، و«التنبيهات السنية» ص(١٣١).

أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

والرَّبُّ هو المعبودُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

وقوله تعالى: (﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾)؛ يعني: أن الله ـ جلَّ وعلا ـ متفرد بالخلق ومتفرد بالأمر، فله الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات، وله الأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، ثم أحكام الجزاء في الدار الآخرة، **قال الله تعالى:** (﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤])؛ أي: عظم وتعالى، وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته سبحانه وتعالى.

قوله: (**والرب هو المعبود، والدليل قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]) معنى (**المعبود**)؛ أي: المستحق لأنْ يُعبد دون سواه، وليس المراد أن من معاني الرب: المعبود، وإلا لزم منه أن كل ما عبد من دون الله فهو رب، وهذا ليس بصحيح، والمصنف رحمه الله لم يقصد أن من معاني (**الرب**): المعبود، وإنما قصد أن الرب هو المستحق لأن يُعبد؛ لأنه بعد أن ساق الآية من سورة البقرة ذكر كلامًا لابن كثير رحمه الله، وهو قوله: (الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة).

والدليل على أن الرب هو المستحق للعبادة **قوله تعالى:**

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾)، فـ (﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾) هذا خطاب لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، **وقوله**: (﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾)؛ أي: أطيعوا ربكم بالإيمان، به وحده، والامتثال للأوامر والنواهي مع المحبة والتعظيم.

وقوله تعالى: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾)؛ أي: أوجدكم من العدم بتقدير عظيم وصنع بديع، ورباكم بأصناف النعم وخلق الذين من قبلكم (﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾)؛ أي: من أجل أن تحصلوا على التقوى، والتقوى: اتخاذ وقاية تحفظكم من عذاب الله باتباع الأوامر واجتناب النواهي.

وقوله تعالى: (﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾)؛ أي: بساطًا مهيئًا تستقرون عليها وتنتفعون بالأبنية والزراعة والسلوك من مكان إلى مكان وغير ذلك من وجوه الانتفاع.

وقوله تعالى: (﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾)؛ أي: وجعل السماء بناءً لمسكنكم وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم؛ كالشمس والقمر والنجوم.

وقوله تعالى: (﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]) المراد بالسماء: السحاب كما ذكره المفسرون، وأطلق عليه سماء؛ لأنه فوق، وكل ما علا وارتفع فهو سماء، والماء: هو المطر، والماء النازل من السماء هو مادة الحياة للأحياء في الأرض جميعًا، سواء أنبت الزرع مباشرة أو كوّن الأنهار والبحيرات العذبة، أو انساح في طبقات الأرض فتتألف منه المياه الجوفية، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]،

فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقوله تعالى: (﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾) جمع ثمرة، والثمرة هو ما تخرجه الأرض من حبوب وخضار، وما تخرجه الأشجار من فواكه (﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾)؛ أي: أشباهًا ونظراء تصرِفون لهم العبادة أو شيئًا منها (﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢])؛ أي: تعلمون أن هذه الأنداد ليست مماثلة لله تعالى، وتعلمون أيضًا أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة.

فجمعت هذه الآية بين الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في **قوله:** (﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾) قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاةٍ سوداءَ في ظلمة الليل، وهو أن يقول: واللهِ وحياتِكَ يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان، فإن هذا كله به شرك[(١)].

فدل تفسير ابن عباس رضي الله عنهما على وجوب تجنب الألفاظ الشركية ولو لم يقصدها الإنسان، وأن الشرك الأصغر خفيٌّ جدًّا، وقلَّ من يتنبَّه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٢/١)، قال في «تيسير العزيز الحميد» ص(٥٨٧): (سنده جيد). وقوله: (لا تجعل فيها فلان) لعله جاء على لغة ربيعة الذين يقفون على المنصوب بالسكون.

. . . .

له، ولما قال الصحابة ﵃ للنبي ﷺ: كيف نتقيه؟ قال: قولوا: «**اللَّهمَّ إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم**»[(١)].

وقول ابن عباس ﵄: (فإن هذا كله به شرك)؛ أي: أصغر أو أكبر حسب ما يكون في قلب المتكلم بمثل هذه الألفاظ[(٢)]، فعلى المسلم أن ينتبه لما يصدر منه من ألفاظ، وأن يزنها بميزان الشرع، لئلا يتكلم بما يكون مخلًّا بسلامة عقيدته.

وهذه الآية هي أحد البراهين العقلية التي أبطل الله بها اتخاذ المشركين للآلهة، فإن القرآن الكريم ذكر برهانين عقليين على إبطال الشرك والتنديد بالمشركين الذين عبدوا مع الله غيره.

البرهان الأول: إذا كنتم تُقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المُميت المدبِّر لهذا الكون، فيلزمكم أن تعترفوا بوحدانيته، فإن من كانت هذه صفته فهو الإلٰه المستحق للعبادة، وما عداه فهو مربوبٌ مألوهٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا

(١) أخرجه أحمد (٣٢/٣٨٣)، والطبراني في «الأوسط» (٤/٢٨٤) من طريق أبي علي الكاهلي، عن أبي موسى ﵁. قال المنذري (١/٧٦): (ورواته إلى أبي علي محتج بهم في «الصحيح»، وأبو علي وثقه ابن حبان، ولم أر أحدًا جرحه). ومثله في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٢٣).

والحديث حسنه الألباني في «صحيح الترغيب» ص(٩١، رقم ٣٣). وانظر: «النهج السديد» ص(٢٢٢).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/٣٢٣).

قال ابن كثيرٍ رحمه الله تعالى: الخالقُ لهذه الأشياء هو المُسْتَحِقُّ للعبادة.

تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وهذا من التناقض الذي وقع فيه المشركون، إذ كانوا يعترفون بأن هذه الأمور من خصائص الله تعالى، وهذا يعني أن يقرُّوا بالعبادة؛ لأن غيره مما عبد معه ليست لهم هذه الخصائص.

البرهان الثاني: أن هذه الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ليس لها ما يخولها لأن تعبد، فإنها كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣][1]، وقد تقدم شيء من ذلك.

قوله: (قال ابن كثير رحمه الله تعالى) ابن كثير هو العلامة الحافظ المحدِّث المفسِّر المؤرِّخ إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، وُلد سنة ٧٠٠هـ أو بعدها بيسير في دمشق، ونشأ يتيمًا، ورُزق حافظة نادرة، فاشتغل بالحديث ودَرَس الفقه، وألَّف فيه، وأخذ عن شيخ الإسلام ابن تيمية وأحبه وأثنى عليه[2]. من مؤلفاته المطبوعة: التفسير المشهور، و«البداية والنهاية» في التاريخ، و«جامع المسانيد والسُّنن»، و«إرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه»، مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٧٧٤هـ[3].

قوله: (الخالق لهذه الأشياء هو المُستحق للعبادة)؛ أي:

---

(١) انظر: «تفسير ابن سعدي» ص(٥٧٧)، و«نبذة في العقيدة الإسلامية» ص(٢١).
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١٣٥/١٤، وما بعدها).
(٣) انظر: «البداية والنهاية» (٣١/١٤). وانظر: «فهرس البداية والنهاية» تأليف: محمد الأشقر ص(٥٢)، و«الإمام ابن كثير» للدكتور: مسعود الندوي.

وأنواعُ العبادةِ الَّتي أَمَرَ اللهُ بها، مِثْلُ الإسلامِ، والإيمانِ والإحسانِ، ومنه الدُّعاءُ، والخوْفُ، والرَّجاءُ، والتَّوكُّلُ، والرَّغْبَةُ، والرَّهبةُ، والخشوعُ، والخَشْيةُ، والإنابةُ، والاسْتعانةُ، والاستعاذةُ، ....

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه العبارة عند تفسير الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ولفظ ابن كثير في «تفسيره» مغاير لما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والمعنى واحد. وهو أن الآيات المذكورة دلَّت على أن الذي خلق هذه الأشياء وأوجدها من العدم على غير مثال سابق هو الذي يستحق أن يُعبد وحده ولا يشرك به غيره؛ لأن كل من سواه تعالى وتقدس مخلوق، مربوب، مُتَصَرَّفٌ فيه.

ولمَّا بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، وذكر الأدلة على ذلك، شرع في بيان أنواع العبادة التي شرع الله لعباده القيام بها، وساق الأدلة عليها، وقد تقدم معنى العبادة.

قوله: (وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل الإسلام والإيمان والإحسان) هذه الأنواع الثلاثة هي أعظم مراتب الدين وأعظم أنواع العبادة، كما ورد في حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الآتي ـ إن شاء الله ـ وقد ذكرها المصنف إجمالًا، ولما بدأ بالتفصيل لم يشر إليها؛ لأنه سيذكرها فيما بعد.

قوله: (ومنه الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة،

والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنَّذرُ، وغيرُ ذلك منَ العبادةِ التي أَمرَ اللهُ بها، كُلُّهَا لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغيرِ اللهِ فهوَ مشركٌ كافرٌ.

والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من العبادة التي أمر الله بها)؛ أي: ومما أمر الله به: الدعاء والخوف... إلخ، **وقوله: (وغير ذلك من أنواع العبادة)** إشارة إلى أن أنواع العبادة غير محصورة بهذه الأنواع، بل هي كثيرة جدًّا؛ لأن كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو عبادة، فالعبادة ـ بهذا المعنى ـ تشمل الدين كله، والحياة كلها.

قوله: (كلها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨])؛ أي: كل أنواع العبادة مما ذكر وغيره لله وحده لا شريك له. ثم ذكر الدليل، وقد تقدم تفسير هذه الآية، وأن المراد بالمساجد: أماكن الطاعة والعبادة؛ أي: المساجد المعروفة، وروي عن بعض السلف أنها أعضاء السجود التي خلقها الله تعالى ليسجد عليها العبد، وعلى أي حال فالآية دليل على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة؛ **لقوله سبحانه**: (﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾).

قوله: (فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر)؛ أي: فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة التي ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثل أن يدعو غير الله تعالى من الأموات والغائبين أو يرجوهم أو يخافهم أو يسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات أو غير ذلك فهو مشرك

والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

الشرك الأكبر؛ لأنه صرف بعض خصائص الله لغير الله، وكافر؛ لأنه جحد حقًّا لله تعالى فصرفه لغيره، فالشرك والكفر قد يجتمعان فيمن لا إيمان له، فيقال: إنه مشرك كافر، وقد ينفرد الشرك بقصد الأوثان من قبور وغيرها، وإن كان يعترف بالله تعالى فلا يطلق عليه كافر، بل هو مشرك فقط؛ لأن الكفر معناه الجحد والإنكار، لكنه مشرك كافر إذا صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله منكرًا أن الله سبحانه وتعالى مستحقٌّ لهذه الأنواع، ولهذا **قال الشيخ** رحمه الله: **(فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر)**.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧])؛ أي: والدليل على أن من دعا مع الله غيره فهو مشرك كافر هذه الآية، فإن الله تعالى سماهم كافرين لدعائهم مع الله غيره، والبرهان هو الدليل الذي لا يترك في الحق لبسًا، وهو أقوى الأدلة؛ لأنه لا يترك التباسًا عند السامع، ولهذا يطلق عليه برهان، فهو أقوى من الحجة وأقوى من الدليل؛ لأن الدليل قد يكون ظنيًّا لا قطعيًّا، أما البرهان فهو أمر قطعي. **فقوله سبحانه**: (﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾)؛ يعني: ليس له دليل ولا حجة على هذا، ولا يمكن لأحد أن يدعو مع الله غيره ويكون له برهان بحيث يكون الذم متوجهًا إلى من دعا مع الله غيره وليس معه برهان؛ لأنه يستحيل وجود برهان على عبادة إلٰه آخر مع الله تعالى، فهذا الوصف (﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾) جاء ـ والله أعلم ـ

وفي الحديث: «الدُّعَاءُ مُخُّ العبادةِ».

لموافقة الواقع ـ لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق بحيث يقال: من عبد مع الله غيره وله برهان فلا مانع، ومعنى (موافقة الواقع) أنه وصف مطابق للواقع؛ لأنهم يدعون مع الله غيره بلا برهان.

وقوله تعالى: (﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾)؛ يعني: حساب هذا الذي دعا مع الله غيره عند ربه، وهو حساب لا فلاح معه؛ **لقوله تعالى:** (﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾)؛ ونَفْيُ الفلاح يدل على هلاكه وأنه من أهل النار.

والشاهد من الآية هو أن الله جلَّ وعلا سمَّى من دعا معه غيره كافرًا، وهذا لا منازعة فيه مهما كان هذا المدعو، سواء أكان مَلَكًا أم نبيًّا أم من هو دون ذلك.

قوله: (وفي الحديث: «الدعاء مُخُّ العبادة») بدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالاستدلال على كل نوع من أنواع العبادة التي ذكرها، والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سرد أنواع العبادة كما تقدم. وسأتكلم ـ إن شاء الله ـ على كل نوع منها بما تيسر من تعريف أو تقسيم أو سياق لبعض الأدلة، زيادة على ما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأدلة، فبدأ بالنوع الأول وهو الدعاء؛ لأنه أهم أنواع العبادة، لما ورد في حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»[1]، فدلَّ على أن الدعاء **أهم أنواع العبادات من وجهين:**

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٣٠/٢٩٧ ـ ٢٩٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، والحاكم (١/٤٩١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

....

الأول: أن النبي ﷺ أتى بضمير الفصل «هو»، وضمير الفصل يفيد التوكيد.

الثاني: أنه أتى بالخبر المعرَّف باللام في **قوله**: («العبادة») فكأنه **قال**: «الدعاء هو العبادة لا غيرها»[(١)].

والدعاء في القرآن الكريم يتناول معنيين:

الأول: دعاء العبادة، وهو فعل الطاعة تقربًا إلى الله تعالى، فهو شامل لجميع الطاعات، من صلاة وصوم وزكاة وحج وتلاوة وذكر وغيرها؛ لأن العابد يطلب من ربه القبول والثواب، ويسأله مغفرة ذنوبه بلسان الحال.

الثاني: دعاء المسألة، وهو دعاؤه ﷻ بجلب المنفعة ودفع المَضَرة، فكلا النوعين عبادة لله ﷻ؛ لأن الداعي دعاء المسألة يطلب سؤله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والمغفرة بلسان الحال، كما تقدم[(٢)].

أما الحديث الذي **ذكره المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ («الدعاء مخ العبادة») فمخ الشيء لبُّه وخلاصته وما يقوم به؛ ومعناه: أن العبادة لا تقوم إلا بالدعاء، كما أن الإنسان لا يقوم إلا بالمخ؛ وإنما كان الدعاء مُخَّ العبادة؛ لأنه يدل على الإقبال على الله تعالى والإعراض عما سواه، وهذا الحديث يدل على منزلة الدعاء من بين أنواع العبادة، وهو حديث ضعيف[(٣)] لكن معناه صحيح، ويشهد له الحديث

(١) انظر: «فيض القدير» (٣/٧٢١).
(٢) انظر: «القواعد الحسان» ص(١٥٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) عن أنس رضي الله عنه وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه =

والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

ودليل الخوفِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

الذي ذكرته آنفًا، وهو حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠])؛ ومعنى: (﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾) استجب طلبكم، وأتقبل عملكم. **ووجه الدلالة** من الآية: أن الله جلَّ وعلا سمَّى الدعاء عبادة، **فقال**: (﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾)؛ أي: حقيرين ذليلين صاغرين جزاءً لهم على استكبارهم، فهذه الآية فيها أن الله تعالى أمر بالدعاء ووعد بالإجابة، فدل على أن الدعاء عبادة، بل هو من أجلِّ العبادات.

قوله: (ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]) الخوف هو انفعال يحصل بتوقع ما فيه ضرر أو هلاك، **والخوف أنواع**:

= لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة». قال في «التقريب»: (خلط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما، وله في مسلم بعض شيء مقرون). وذكره الحافظ في «طبقات المدلسين»، وقال ابن حبان في «المجروحين»: (كان صالحًا، ولكنه كان يدلس عن الضعفاء). وفيه عنعنة الوليد بن مسلم، وهو قبيح التدليس.

والحديث ضعفه المنذري في «الترغيب» (٤٨٢/٢) حيث صدَّره بـ (رُوي) كما هو اصطلاحه كما في المقدمة. وانظر: «النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد» ص(٨٣).

. . . .

الأول: الخوف الطَّبَعِيُّ؛ كالخوف من عدو أو سبع أو حية فهذا ليس بعبادة، ولا ينافي الإيمان؛ لأنه قد يوجد في المؤمن، كما قال النبي ﷺ: «... **وإن الله أمرني أن أحرِّق قريشًا، فقلت: ربِّ؛ إذن يَثْلَغوا رأسي، فَيَدَعوه خُبْزَةً**»[1]، وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، وهذا الخوف لا يلام عليه الإنسان إذا انعقدت أسبابه[2]، أما إذا كان وهميًّا، أو له سبب ضعيف فهو مذموم؛ لأن صاحبه جبان.

النوع الثاني: خوف «السِّر»، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو ولي من الأولياء بعيدًا عنه أن يصيبه بمكروه، وهذا الخوف هو الواقع بين عُبَّاد القبور والمتعلِّقين بالأولياء، قال تعالى عن قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] فهم يتصوَّرون أن الآلهة يُخاف منها؛ لأنها قد تعتري الإنسان بسوء، ومعنى هذا في نظرهم أنها إذا كانت تنفع، فإنه يتصور أنها تضر، فهذا يطلق عليه خوف السر.

النوع الثالث: أن يترك الإنسان ما يجب خوفًا من الناس؛ كأن يترك الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر خوفًا من الناس، فهذا خوف محرَّم ومذموم.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) بتمامه من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، وقد شرحته ـ ولله الحمد ـ، في «روضة الأفهام».

(٢) انظر: «المفهم» (٦/ ١٦٤).

. . . .

النوع الرابع: خوف تعبُّد وتعلُّق، وهو أن يخافَ أحدًا يُتَعَبَّد بالخوف له فيدعوه الخوف لطاعته، وهذا النوع هو خوف التعبد والتأله الذي يحمل على الطاعة والبعد عن المعصية، وهذا خاص بالله تعالى، وتعلُّقه به من أعظم واجبات الدين ومقتضيات الإيمان، وتعلُّقه بغير الله تعالى من الشرك الأكبر؛ لأن الخوف من أعظم واجبات القلب[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه، ولا سيما إذا كان طالبًا ما لم يحصل له، فإنَّ نفسه تبقى طالبة لما تستريح به، وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه، فيستريح إلى المحرَّمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور. . .)[2].

والآية التي ساقها المؤلف دليل على أن الخوف عبادة لله تعالى، بدليل أن الله تعالى جعل الخوف شرطًا لصحة الإيمان، **فقال تعالى**: (﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥])، وهذه الآية أولُّها **قوله تعالى**: (﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾)؛ ومعنى (﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾)؛ أي: يخوفكم أولياءه ويعظمهم في صدوركم؛ لأجل أن تموت معنوياتكم فتخافوهم فتحصل الهزيمة. قال ابن الأنباري: (والذي نختاره في الآية: يخوفكم

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٨٤).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٤ ـ ٥٥).

. . . .

أولياءه. تقول العرب: أعطيت الأموال؛ أي: أعطيت القوم الأموال، فيحذفون المفعول الأول)[١]، **وقوله تعالى**: (﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾) فيه بيان أنه لا يجوز للمؤمن أن يخاف أولياء الشيطان، ولا أن يخاف الناس، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فخوف الله أَمَرَ به، وخوف أولياء الشيطان نهى عنه[٢].

والشاهد من الآية: أن الإنسان إذا خاف غير الله سبحانه خوف تعبُّد وتألُّه مستقر بالقلب يحمل على الطاعة والبعد عن المعصية، فإن هذا الخوف من أنواع الشرك؛ لأن الله جلَّ وعلا جعله من مقتضيات الإيمان، فمن صرف هذا لغير الله تعالى فليس بمؤمن، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنًى بديعًا للخوف المحمود، كما نقله عنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مدارج السالكين»[٣]. يقول شيخ الإسلام: (الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله)، وقال بعض السلف: (لا يُعد خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا)[٤].

والخشية بمعنى الخوف، لكن الخشية أخص من الخوف؛ لأن الخشية مقرونة بمعرفة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالخشية خوف مقرون بمعرفة الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»[٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/٥٦).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١/٥٧).
(٣) (١/٥١٤).
(٤) «المفردات في غريب القرآن» ص(١٦٢).
(٥) «مدارج السالكين» (١/٥١٢)، والحديث أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١١٠٨).

ودليل الرَّجاء قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله: (**ودليل الرجاء قوله تعالى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]) أصل الرجاء هو الطمع أو انتظار الشيء المحبوب، والرجاء يتضمَّن التذلُّل والخضوع، فلا يكون إلا لله ﷻ، وتعليق الرجاء بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، وإن كان الله تعالى قد جعل لها أسبابًا، فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من مُعاون، ولا بد من انتفاء الموانع، وهو لا يحصل ولا يبقى إلا بمشيئة الله تعالى[(١)].

والرجاء نوعان:

١ ـ **رجاء محمود:** وهو رجاءُ إنسانٍ عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، ورجاء إنسانٍ أذنب ذنوبًا، ثم تاب منها، فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحِلمه وكرمه.

٢ ـ **رجاء مذموم:** وهو رجاءُ إنسانٍ متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بِلَا عمل، فهذا هو الغرور والتمني وهو الرجاء الكاذب.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل، والتمني يكون مع الكسل. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالمحبة

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٥٦/١٠).

. . . .

والعبودية بالطاعة وأنواع القربات[(١)].

ومعنى **قوله تعالى**: (﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾)؛ أي: يعمل ويطلب وينتظر، **وقوله**: (﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾) فُسِّرَ اللقاء أو اللُّقيُّ ـ هنا ـ بالمعاينة، والمراد بها الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقاء يوم القيامة **نوعان**:

١ ـ **نوع خاص**: وهذا للمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم من الله ﷻ، كما في هذه الآية.

٢ ـ **لقاء عام**: لجميع الناس، وقد دل على اللقاء العام قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ الآية [الانشقاق: ٦ ـ ١١]، فدلَّ قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠...﴾ على أن اللقاء في قوله: ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ لقاء عام.

أما في **قوله تعالى**: (﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾) فمعناها: فمن كان ينتظر ويطلب ويترقب لقاء الله ﷻ الذي هو لقاءُ رضًا ونعيم، فليعمل عملًا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا؛ لأن الذي يرجو ثواب الله ويخاف من عقابه يعمل عملًا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا، والعمل الصالح كما فسَّره أهل العلم هو الخالص من الرياء الموافق لشرع الله من واجب أو مستحب، **وقوله**: (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ

---

(١) راجع: «مدارج السالكين» (٢/٣٥ ـ ٣٦).

....

رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾)؛ يعني: لا يشرك في العبادة مع الله غيره كائنًا من كان، لا مَلَكًا مقربًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا أحدًا من الصالحين، وفي **قوله سبحانه**: (﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾) إشارة إلى علة النهي عن الشرك؛ أي: فكما أنه ربك الذي خلقك وربَّاك ولم يشاركه أحد في خلقك، فيجب أن تكون العبادة له وحده لا شريك له[(١)].

فالواجب على العبد أن يحقق رجاءه، فلا يعلِّقه إلا بالله تعالى، لا يعلِّقه بقوته، ولا بعمله، ولا يعلّقه بمخلوق، ومن المأثور عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: (لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه)[(٢)].

وعلى الإنسان أن يعلم أنه كلما قوي رجاؤه، وطمعه في فضل الله تعالى ورحمته وتيسير أموره، ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته لربه، وحُرِّيَتَهُ مما سواه، وإن رجا مخلوقًا، أو تعلق به، انصرف قلبه عن العبودية لله تعالى، وصار عبدًا لغيره بقدر ما قام في قلبه من التعلق والرجاء؛ فذلَّ لغير الله وخضع[(٣)].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام نفيس في هذا الموضع أنقله ليستفيد منه القارئ، يقول رحمه الله: (اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف

---

(١) «حاشية ابن قاسم» ص(٣٧)، «القول المفيد» (٢/٢٣٠).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٩/١٥٦ ـ ١٥٧)، «حلية الأولياء» (١/٧٥ ـ ٧٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٥٦ ـ ٢٥٧).

. . . .

الخوف فإنه يزول في الآخرة. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم، يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه؛ فأي شيء يحرك القلوب؟ **قلنا**: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تُعَلِّقُ القلوب به...

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه... فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير عنده باعثًا، وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو)[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كلما قوي الرجاء، جدَّ صاحبه في

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/٩٥ ـ ٩٦).

ودليل التوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المَغَلِّ، غلَّق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه، قصَّر في البذر)[1]. وقال في موضع آخر: (لولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء)[2].

قوله: (ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]) أصل التوكُّل: الاعتماد. تقول: توكَّلت على الله توكُّلًا؛ أي: اعتمدت عليه، هذا معنى التوكل، وحقيقة التوكل: أن يعتمد العبد على الله سبحانه وتعالى اعتمادًا صادقًا في مصالح دينه ودنياه مع فعل الأسباب المأذون فيها، فالتوكل: اعتقاد، واعتماد، وعمل.

أما الاعتقاد فهو: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، فإن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والله جلَّ وعلا هو: النافع، الضار، المعطي، المانع. ثم بعد هذا الاعتقاد يعتمد بقلبه على ربه سبحانه وتعالى، ويثق به غاية الوثوق، ثم بعد هذا يأتي الأمر الثالث، وهو: أن يفعل الأسباب المأذون فيها شرعًا.

والتوكل على الله تعالى نوعان:

أحدهما: توكل عليه في تحصيل حظ العبد من الرزق والعافية وغيرهما.

وثانيهما: توكل عليه في تحصيل مرضاته.

---

(١) «الفوائد» ص(٩٨ ـ ٩٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٠).

. . . .

فأما النوع الأول: فغايته مطلوبة وإن لم تكن عبادة؛ لأنها محضُ حظِّ العبد، فالتوكل على الله في حصوله عبادة، فهو منشأ لمصلحة دينه ودنياه.

وأما النوع الثاني: فغايته عبادة، وهو في نفسه عبادة، فلا علة فيه بوجه، فإنه استعانة بالله على ما يرضيه، فصاحبه متحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥][1].

وأما التوكل على غير الله تعالى فأنواع:

النوع الأول: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من جلب المنافع ودفع المضار، وهذا شرك أكبر؛ لأنه إذا كان التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فالتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه غير الله من الشرك الأكبر، وهذا النوع هو المراد **بقوله**: (﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

النوع الثاني: أن يتوكل على حيٍّ حاضر من ملك أو وزير أو مسؤول فيما أقدره الله عليه من رزق أو دفع أذى، أو حصول منصب

(١) «طريق الهجرتين» ص(٣٣٦).

. . . .

ونحو ذلك، وهذا شرك أصغر، بسبب قوة تعلق القلب بهذا الإنسان واعتماده عليه. أما إذا اعتقد أن هذا الإنسان سبب، وأن الله تعالى هو الذي أقدره على هذا الشيء وأجراه على يديه، فهذا لا بأس به إذا كان لهذا الإنسان أثر صحيح في حصول المراد. لكنَّ كثيرًا من الناس قد لا يمر على باله هذا المعنى، ويكاد يعتمد على هذا الإنسان في حصول مراده.

النوع الثالث: الاعتماد على الغير في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، فهذا جائز دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة والإجماع. لكن لا يعتمد عليه في حصول ما وُكِّلَ فيه، بل يتوكل على الله ﷻ في تيسير أمره الذي يطلبه إما بنفسه أو بنائبه، ولهذا لا تقول: توكلت على فلان، إنما تقول: وكلت فلانًا، وقد وكل النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه في ذبح بقية بُدْنِهِ في حجة الوداع[(١)]، ووكل أبا هريرة رضي الله عنه على الصدقة[(٢)]، ووكل عروة بن الجعد رضي الله عنه أن يشتري له أضحية[(٣)].

أما الآية، وهي **قوله تعالى**: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، **فقوله**: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا على غيره، وهذا يفيد القصر؛ لأن من طرقه عند البلاغيين تقديم ما حقه التأخير، والأصل: توكلوا على الله، **وقوله**: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا أمر يدل على وجوب التوكل؛ أي: اعتمدوا على الله جلَّ وعلا، وفَوِّضوا أموركم

---

(١) انظر: «تيسر العزيز الحميد» ص(٤٩٧)، وتوكيله ﷺ عليًّا رضي الله عنه أخرجه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤٢).

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

إليه، فدلَّت الآية على وجوب التوكل، وأنه من العبادات، **وقوله:** (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)؛ أي: إن كنتم مؤمنين بالله جلَّ وعلا فعليه توكلوا. قال ابن القيم: (فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، فمن لا توكل له لا إيمان له)[١].

(وقال [تعالى]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]**)**
ساق المؤلف آيتين في التوكل، والغالب أنه لا يسوق إلا دليلًا واحدًا؛ وكأنه أراد ـ والله أعلم ـ أن الدليل الأول فيه وجوب التوكل والأمر بالتوكل، والدليل الثاني فيه جزاء من توكل على الله، هذا الذي يظهر، والله أعلم.

وقوله: (﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾)؛ أي: كافيه، ومن كان الله جلَّ وعلا كافيه تيسَّرت أموره، ولا مطمع لأحد فيه، وهو يدل على عظم شأن التوكل وفضله، حتى إنه لم يأت في أيِّ عبادة من العبادات أن الله **قال:** (﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾) إلا في مقام التوكل.

ومن فضيلة التوكل ـ أيضًا ـ: أن الله تعالى جعله سببًا لنيل محبته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومن فضيلته أنه دليل على صحة إسلام المتوكل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٩).

ودليل الرَّغْبةِ والرَّهْبةِ والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله: (ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]) هذه ثلاثة أنواع من العبادة دلَّت عليها آية واحدة.

الأول: الرغبة؛ ومعناها: السؤال والتضرُّع والابتهال مع محبة الوصول إلى الشيء المحبوب، فإذا كان يدعو وعنده قوة لحصول مطلوبه فهذه رغبة.

والثاني: الرهبة؛ والرهبة بمعنى: الخوف المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بعمل. قال الراغب: «الرَّهْبة والرُّهْب: مخافة مع تحرز واضطراب»[(١)].

والثالث: الخشوع وهو التذلل والتطامن، وهو بمعنى الخضوع إلا أن الخضوع يغلب أن يكون في البدن، والخشوع في القلب أو البصر أو الصوت. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

والدليل على أن هذه الثلاثة عبادات: أن الله جلَّ وعلا أثنى

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص(٢٠٤). وانظر: «الكشف» لمكي (٢/١٧٣).

ودليل الخشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ الآية.

على الأنبياء الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة ـ سورة الأنبياء ـ أو على زكريا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأهل بيته، فقال عنهم: (﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾)؛ يعني: يبادرون في الطاعات، ويسارعون في الخيرات، ويسابقون إلى نيل القربات، وهذا يدل على أن المسلم ينبغي له المبادرة بطاعة الله جلَّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: (﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾) الرَّغَب والرَّهَب مصدران لرغِبَ يَرْغَبُ رَغَبًا ورغبة، بمعنى: الضراعة والمسألة، ورَهِبَ يَرْهَبُ رَهَبًا ورهبة؛ أي: خاف؛ والمعنى: يدعوننا رغبًا في رحمتنا، ورهبًا من عقوبتنا (﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾)؛ أي: خاضعين متذلِّلين؛ فأثنى الله تعالى عليهم ومدحهم بهذه الصفات، ولا يمدح إلا من كان عابدًا لله تعالى.

وفي الآية دليل على أنه ينبغي للداعي أن يجمع بين الرغبة في رحمة الله تعالى، والرهبة من عذابه، وفيها دليل على فضل الخشوع في العبادات، لا سيما الصلاة والدعاء.

قوله: (**ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ الآية** [البقرة: ١٥٠]) تقدم أن الخشية بمعنى الخوف، ولكن الخشية أخص؛ لأنها مبنية على علم بعظمة من يخشاه. قال الراغب: (الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ

ودليل الإنَابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ الآية.

ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨])[1].

ووجه الدلالة من الآية على أن الخشية من أجلِّ العبادات: أن الله تعالى نهى المسلمين عن خشية الكفار وأمر بخشيته وحده لا شريك له، ومثلها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

يقول الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الخوف والخشية والخشوع والإخبات والوجل معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد عن محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله، وأما الخشوع والإخبات والوجل فإنها تنشأ عن الخوف والخشية لله، فيخضع العبد لله ويخبت إلى ربه منيبًا إليه بقلبه ويحدث له الوجل، وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه فهذا خشوع خاص. وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته، فيستولي ذلك على القلب، كما تستولي المحبة)[2].

قوله: (**ودليل الإنابة قوله تعالى:** ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]).

الإنابة بمعنى التوبة، ولكن قال العلماء: إنها أعلى من التوبة؛ لأن التوبة إقلاع وندم وعزم على ألا يعود، أما الإنابة ففيها المعاني

---

(١) «المفردات» ص(١٤٩).
(٢) «فوائد قرآنية» ص(٩٦).

....

الثلاثة، وتزيد معنى آخر، وهو: الإقبال على الله تعالى بالعبادات، فإذا أقلع الإنسان من معصية، وعزم ألا يعود، وندم على ما مضى، واستمر على ما هو عليه من عباداته، يقال: هذا تائب، لكن إذا تجدد له الإقبال بعد توبته فهذا منيب إلى الله تعالى، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أن الإنابة إنابتان:**

١ ـ **إنابة لربوبيته**: وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داعٍ أصابه ضر، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشِّرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤].

٢ ـ **إنابة لإلٰهيته**: وهي إنابة أوليائه إنابةَ عبوديةٍ ومحبة، وتتضمَّن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فالمنيب إلى الله: المُسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه؛ لأن لفظ (الإنابة) فيه معنى الإسراع والرجوع والتقدم[1].

وفي الآية الكريمة ما يدل على أن الإنابة من العبادات، وأن الله جلَّ وعلا أمر بها، ولهذا لم يذكر المصنف التوبة من أنواع العبادة، إنما اقتصر على ذكر الإنابة؛ لأن صورة العبادة بالنسبة

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٣٤).

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

للإنابة أوضح من صورتها بالنسبة إلى التوبة بسبب زيادة الإقبال على العبادة.

وقوله تعالى: (﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾)؛ أي: ارجعوا إليه بالطاعة، (﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾)، المراد بالإسلام في الآية الكريمة هو الإسلام الشرعي؛ ومعناه: الاستسلام والانقياد لأحكام الشريعة، وهذا لا يكون إلا للطائعين، فالطائع مسلم إسلامًا شرعيًّا؛ لأنه انقاد لأحكام الشرع، أما بالنسبة إلى الإسلام الكوني، وهو المعنى الثاني، وهو الاستسلام لحكم الله الكوني، فهذا ليس خاصًّا بالطائعين، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، ففيه من يسلم طائعًا، وفيه من يسلم وهو كاره، ومعنى هذه الآية أن جميع من في السمٰوات ومن في الأرض منقادون لحكم الله الكوني؛ بمعنى: أنهم منقادون لما يجريه الله تعالى ويقدره عليهم شاؤوا أم أبوا، فهذا إسلام كوني. أما الإسلام الشرعي الذي يمدح فاعله، وهو من أنواع العبادة، فهو المعنى الأول.

قوله: (**ودليل الاستعانة قوله تعالى**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]) الاستعانة طلب العون؛ لأن الألف والسين والتاء في اللغة للطلب، فإذا قيل: استعان؛ فمعناه: طلب الإعانة، وإذا قيل: استغاث؛ أي: طلب الغوث، وإذا قيل: استخبر؛ أي: طلب الخبر، **والاستعانة أنواع**:

النوع الأول: الاستعانة بالله، وهي الاستعانة المتضمِّنة كمال

....

الذُّل من العبد لربه مع الثقة به والاعتماد عليه، وهذه لا تكون إلا لله؛ **فهي تتضمن ثلاثة أشياء:**

الأول: الخضوع والتذلل لله تعالى.

الثاني: الثقة بالله جلَّ وعلا.

الثالث: الاعتماد على الله ﷻ، وهذه لا تكون إلا لله، فمن استعان بغير الله محققًا هذه المعاني الثلاثة فقد أشرك مع الله غيره[1].

والعبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ولا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، وهذا تحقيق معنى قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، فإن المعنى: لا تحوُّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله تعالى، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، وهذه في الدنيا، وكذا عند الموت وبعده من أحوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه[2].

النوع الثاني: الاستعانة بالمخلوق على أمر قادر عليه، ومعنى الاستعانة بالمخلوق: أن تطلب منه أن يعينك ويساعدك، وشرط ذلك

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٧٤، ٧٥).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: شرح الحديث (١٩).

....

أن يكون في أمر يقدر عليه، فهذه إن كانت على برٍّ وخير فهي جائزة، والمُعين مُثاب؛ لأنه إحسان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وإن كانت على إثم فهي حرام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

النوع الثالث: الاستعانة بالأموات أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون عليه فهذا شرك؛ لأنه إذا استعان بالميت أو بحيٍّ على أمر بعيد غائب عنه لا يقدر عليه؛ فهذا يدل على أنه يعتقد أن لهؤلاء تصرُّفًا في الكون وأن مع الله مدبِّرًا.

النوع الرابع: الاستعانة بأعمال وأحوال محبوبة شرعًا، فهذا النوع مشروع بدليل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فكونك تستعين بالصبر وتستعين بالصلاة على أمورك هذا أمر محبوب[(١)].

وقوله: (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾) في هذه الآية اجتمع أمران عظيمان عليهما مدار العبودية. (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾) تبرُّؤ من الشرك. (﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾) تبرُّؤ من الحول والقوة، وتقديم المعمول هنا يفيد الحصر ـ كما مرَّ ـ؛ لأن المعنى: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

(١) انظر: «شرح الأصول الثلاثة» للشيخ محمد العثيمين ص(٥٨).

وفي الحديث: «**إذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللهِ**».

ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾،

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾)[1].

ويقول الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: (تقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، واهتمامًا بتقديم حقه تعالى على حق عبده. . . .

وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يُعِنْهُ الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي)[2].

قوله: (وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله») هذا جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث عظيم جليل القدر، أوله: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»؛ أي: احفظ حدوده وأوامره يحفظك حيث توجَّهت، «**وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعِن بالله**»[3]؛ والمعنى: عليك أن تحصر استعانتك وطلبك العون في الله سبحانه وتعالى؛ لأنه القادر على كل شيء وغيره العاجز، ومن استعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك.

قوله: (ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٧٨). (٢) «تفسير ابن سعدي» ص(٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٤/٤٠٩ ـ ٤١٠)، وللحديث طرق كثيرة، فيها الصحيح، وفيها الضعيف، وفي ألفاظها اختلاف. انظر: «منحة العلّام» (١٠/١٦٧)، وللحافظ ابن رجب شرح وافٍ لهذا الحديث، مطبوع في جزء لطيف.

و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ....

[الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]). الاستعاذة: هي الاعتصام والالتجاء إلى من تعتقد أنه يُعيذك ويلجئك، والاستعاذة بالله تعالى هي التي تتضمن كمال الافتقار إليه سبحانه، والاعتصام به، واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شر، ولا ريب أن هذه المعاني لا تكون إلا لله ﷻ، ويدخل في الاستعاذة بالله جلَّ وعلا: الاستعاذة بصفاته، والاستعاذة بكلماته وبعزته، ونحو هذا، كما في بعض الأوراد الصحيحة الثابتة: «**أعوذ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ما خلق**»[1]، و«**أعوذ بالله وقدرته من شرِّ ما أجِدُ وأُحاذِر**»، وفي لفظ: «**أعوذ بعزة الله وقدرته..**»[2]، فهذه استعاذة بالله ﷻ.

أما الاستعاذة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين فهذا شرك، كما تقدم في الاستعانة. أما الاستعاذة بمخلوق يمكن العوذ به لأنه قادر، فهذا يجوز، كما لو هربت من سبع والتجأت إلى شخص آخر يحميك، أو هربت من عدو والتجأت إلى شخص آخر يمنعك منه، وقد يكون الالتجاء إلى أمكنة؛ كأن يتسلق شجرة أو يدخل في مكان، فمثل هذا لا بأس به.

وقوله تعالى: (﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾)، و(﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾) هذا أمر من الله ﷻ للنبي ﷺ، والأمة تبع له في هذا، ومعنى: (﴿أَعُوذُ﴾)؛ أي: ألتجئ وأتحصَّن (﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾)، الفلق:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٢)، وأبو داود (٣٨٩١).

ودليل الاستغاثَةِ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية.

هو الصبح، والمعنى ـ والله أعلم ـ: أن القادر على إزالة هذه الظلمة من العالم قادر على أن يدفع عن هذا المستعيذ ما يخافه ويخشاه، **وقوله**: (﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾)؛ أي: خالقهم ومصلح أحوالهم.

وفي الآيتين دليل على وجوب الاستعاذة بالله تعالى من جميع شرور خلقه، وأنه سبحانه وتعالى القادر على إعاذة عبده ودفع الشرور عنه، وقد ورد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألم ترَ آيات أُنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط؟** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

قوله: (ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]) الاستغاثة أن تطلب الغوث ممن يستطيع أن ينقذك من ضيق أو شدة.

والفرق بين الاستغاثة والاستعاذة: أن الاستعاذة تطلب منه أن يعصمك وأن يمنعك وأن يحصنك، والاستغاثة تطلب منه أن يزيل ما فيك من شدة، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء، والاستغاثة كالاستعاذة تتضمن كمال الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى واعتقاد كفايته. **قال تعالى**: (﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾)؛ أي: تستجيرون ربكم وتطلبون منه الغوث فاستجاب لكم، وهذه الآية نزلت في غزوة بدر الكبرى، وكان المشركون أكثر من المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٤).

ودليل الذَّبْح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

ثلاث مرات، فالمسلمون بقيادة النبي ﷺ توجهوا إلى الله سبحانه وتعالى بأن يمدهم بالنصر، وأن يخلصهم من هذا الموقف الذي هم فيه، وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ـ وفي رواية أخرى: أنهم بين الألف والتسعمائة ـ فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «**اللَّهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللَّهمَّ إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا**»، قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فردَّه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩][1].

قوله: (ودليل الذَّبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]) المراد بالذبح هنا: ذبح القربان والضحايا والهدايا، **والذَّبح يقع على وجوه:**

النوع الأول: يقع عبادة لله يقصد بها الذابحُ تعظيمَ المذبوح له، والتقرب إليه، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى، فلو تقرَّب بالذَّبح

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

....

لشخص من سلطان أو غيره لوقع في الشرك، وعلامة ذلك أنه يذبح في وجهه؛ أي: يريق الدم ساعة حضوره، فهذا معناه التعظيم، ودليل على أنه قصد بهذا التقرب إليه، وكذا لو ذبح للأولياء أو للجن كما يفعله كثير من الجهلة في بعض الجهات، فهذا من الشرك الأكبر الذي يخرج صاحبه من الملة ـ والعياذ بالله[(١)] ـ.

النوع الثاني: وهو الذبح إكرامًا للضيف أو لوليمة عرس، فهذا مأمور به في الشرع إما وجوبًا أو استحبابًا، وقد قال النبي ﷺ لعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: «**أَوْلِمْ ولو بشاة**»[(٢)]، وفي قصة الأنصاري الذي جاء إليه النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فإنه لمَّا ذهب يذبح لهم قال له النبي ﷺ: «**إياك والحَلوبَ**» فذبح لهم... فأقره النبي عليه الصلاة والسلام على ذبحه لهم[(٣)].

النوع الثالث: أن يكون الذبح للتمتع بالأكل من المذبوح أو الاتجار به، فهذا على الأصل في المنافع، وهو الإباحة. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢] فامتنَّ الله علينا بالأكل من هذه الأنعام[(٤)].

(١) انظر: «فتح المجيد» ص(١٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٥١٥٥)، ومسلم (١٤٢٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٣٨). وانظر: «جامع الأصول» (٤/٦٩١).
(٤) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(١٩٠ ـ ١٩١)، «شرح الأصول الثلاثة» لابن عثيمين ص(٦٢).

....

وقوله تعالى: (﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾)؛ أي: جميع صلواتي. (﴿وَنُسُكِى﴾)؛ أي: جميع أنساكي وهي العبادات أو الذبائح التي يتقرب بها إلى الله تعالى من الهدي والأضحية والعقيقة، وفي هذا إثبات توحيد العبادة، (﴿وَمَحْيَاىَ﴾)؛ أي: أمر حياتي وما أعمله فيها، (﴿وَمَمَاتِى﴾)؛ أي: أمر موتي وما ألقاه بعده، وفي هذا إثبات لتوحيد الربوبية (﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)؛ أي: خالص ومختص بالله خالق ومالك ومدبر العالمين، وهم كل من سوى الله تعالى، (﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٣])؛ أي: لا مشارك له في العبادة، كما أنه لا شريك له في الملك والتدبير، (﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾)؛ أي: وبذلك الإخلاص والتوحيد أمرني الله تعالى أمرًا حتمًا لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله، (﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾)؛ أي: أسبقهم انقيادًا إلى الإسلام، لكمال علمه بالله تعالى، إن كان المراد بالأولية أولية الانقياد، أو أسبقهم زمنًا ويكون المراد بـ: (﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾) مسلمي أمته. إن كان المراد أولية الزمن، والله أعلم بمراده في كتابه[(١)].

قال في «قرة عيون الموحدين»: (والمقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيئًا لغير الله كائنًا من كان، فمن صرف منها شيئًا لغير الله؛ فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في عبادته وبيانه، ونفي

(١) انظر: «فتح القدير» للشوكاني (٢/١٨٥)، «تفسير ابن سعدي» ص(٢٨٢)، «الإلمام ببعض آيات الأحكام» للشيخ محمد بن عثيمين: [تفسير ثالث متوسط: ص٧٦].

ومِنَ السُّنةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

الشرك والبراءة منه)[١].

قوله: **(ومن السُّنَّة: «لعن الله من ذبح لغير الله»)** هذا الحديث جزء من حديث علي ﷺ قال: «حدّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: **لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثًا، لعن الله من غيَّر منار الأرض**»[٢]، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، **وقوله:** **(«لعن الله»)** هذا يحتمل أنه خبر، ويحتمل أنه إنشاء، فإن كان خبرًا، فمعناه: أن الرسول ﷺ يخبرنا أن الله جلَّ وعلا لعن من ذبح لغير الله، وإن كان إنشاءً فمعناه: الدعاء؛ أي: الرسول ﷺ يدعو على من ذبح لغير الله أن يطرده الله من رحمته، والخبر أبلغ لأنه يفيد وقوع اللعن، بخلاف الدعاء فقد يستجاب وقد لا يستجاب[٣].

والذبح لغير الله عام سواء كان لمَلَك أو لنبي أو ولي أو سلطان أو جني أو غير ذلك، وسواء كان المذبوح بعيرًا أو بقرة أو شاة أو دجاجة أو غيرها.

والذبح لله من أجَلِّ الطاعات وأعظم القربات، وفي حديث أنس ﷺ قال: ضحَّى النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين... الحديث[٤]، وأهدى إلى البيت مائة بدنة في حجة الوداع[٥].

---

(١) «قرة عيون الموحدين» ص(٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨).
(٣) «القول المفيد» (١/٢٢٣).
(٤) أخرجه البخاري (٥٢٣٣)، ومسلم (١٩٦٦).
(٥) أخرجه مسلم من حديث جابر ﷺ (١٢١٨)، كما تقدم.

ودليل النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾.

قوله: (ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧])، **قوله سبحانه:** ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ استئناف لبيان الأعمال التي نال بها الأبرار هذا النعيم، قال مجاهد: (يوفون إذا نذروا في حق الله تعالى)، وقال قتادة: (يوفون بطاعة الله، وبالصلاة، وبالحج وبالعمرة)، وقال ابن كثير: (يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر)[(١)]، والنذر: أن يُلزم الإنسان نفسه شيئًا غير لازم بأصل الشرع، فيُلزم نفسه بصدقة أو صيام أو صلاة أو غير ذلك، إما بتعليقه على شيء نحو: إن شفى الله مريضي لأصومَنَّ ثلاثة أيام، أو أتصدق بكذا، أو يكون ابتداء نحو: لله عليَّ أن أتصدق بكذا، أو أصلي ركعتين، أو أصوم أسبوعًا، ونحو ذلك. والجمهور على أنه مكروه، وقالت طائفة بتحريمه؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه، وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل**»[(٢)]، ولكنه إذا وقع وجب الوفاء به في الجملة، والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن النهي ورد في نذر المجازاة، وهو النذر المعلَّق، كما تقدم، وذلك لأنه لم يقع طاعة خالصة. وأما النذر المطلق فهو الذي ورد فيه الترغيب والثناء على الموفين به[(٣)].

ووجه الدلالة من هذه الآية على أن النذر عبادة: أن الله مدح الموفين بالنذر، وكل أمر مدحه الشارع، أو أثنى على من قام به فهو عبادة؛ ولهذا أمر الله تعالى بالوفاء به في قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٩/٢٠٨)، «تفسير ابن كثير» (٧/٤٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩) واللفظ له.
(٣) انظر: «منحة العلَّام» (٩/٣٦٩).

. . . .

نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]؛ أي: أعمال حجهم، وسُمِّيت نذورًا؛ لأن من أحرم بالحج فقد ألزم نفسه إتمامه، وقال النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[(١)]، ومن أوفى بما أوجبه على نفسه، كان إيفاؤه بما أوجب الله عليه أهم وأحرى.

فالنذر عبادة لا يجوز للإنسان أن ينذر لغير الله تعالى، فمن نذر لصنم أو لنبي أو لقبرٍ ونحوها فهو نذر باطل، يحرم الوفاء به بالإجماع، وعليه أن يستغفر الله من هذا العمل[(٢)].

وقوله تعالى: (﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾) فيه إشارة لحسن عقيدتهم، وصلاحهم، واجتنابهم المعاصي؛ لأن هذا الخوف يبعث المؤمن على فعل المأمور، واجتناب المحظور، وهؤلاء الأبرار خافوا أن ينالهم شرُّ ذلك اليوم، فتركوا كل سبب موجب لذلك.

و(﴿يَوْمًا﴾) منصوب على أنه مفعول به لـ(﴿يَخَافُونَ﴾) والمراد يوم القيامة. والتنكير للتعظيم؛ لأن هذا اليوم يوم عظيم في طوله وشدائده، وأهواله.

وقوله تعالى: (﴿كَانَ شَرُّهُ﴾)؛ أي: شدائده وعذابه (﴿مُسْتَطِيرًا﴾)؛ أي: فاشيًا منتشرًا غاية الانتشار، من استطار الحريق: إذا انتشر، واستطار الفجر: إذا انتشر ضوءه. وهو أبلغ من طار؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى[(٣)]. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).
(٢) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٢٠٤).
(٣) انظر: «روح المعاني» (٢٩/ ١٥٥)، «تفسير ابن سعدي» (ص٩٠١).



الأصل الثاني

معرفةُ دِينِ الإسلامِ بالأدلةِ.

قوله: (الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة) لما فرغ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلام على الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه وحققه تحقيقًا بديعًا، وساق عليه الأدلة الكافية انتقل إلى الأصل الثاني: وهو معرفة دين الإسلام، وكان الشيخ قد قدم في مطلع هذه الرسالة «معرفة العبد نبيَّه» على هذا الأصل، لكنه هنا قدم هذا الأصل «معرفة دين الإسلام».

والدين في اللغة: يطلق على معانٍ عدة، **منها**:

١ ـ الطاعة والانقياد. يقال: دان له دينًا وديانة؛ أي: خضع، وذلَّ، وأطاع.

٢ ـ ما يتدين به الإنسان. يقال: دان بكذا؛ أي: اتخذه دينًا وتعبَّد به.

والمعنى الثاني يدخل في مفهومه المعنى الأول؛ لأن من دان بدين خضع لتعاليمه وانقاد لها[(١)].

ودين الإسلام: هو الدين الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، جعله خاتمة الأديان، وأكمله لعباده، وأتم به عليهم النعمة، وتقدم ذكر ذلك.

---

(١) انظر: مادة: (دين) من معاجم اللغة. وانظر: «نبذة في العقيدة الإسلامية» ص(٥).

وهو الاسْتِسْلامُ للهِ بالتَّوْحِيدِ، والانقيادُ له بالطاعةِ،

وقد أشار المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله:** **(معرفة دين الإسلام بالأدلة)** إلى أن معرفة الدين لا بد أن تكون مقرونة بالدليل، إما من كتاب وإما من سُنّة، فيجب على الإنسان أن يكون عالمًا بالدليل على ما يقوم به من عبادة الله تعالى، ليكون على بصيرة من أمر دينه؛ لأن ذلك من أسباب الثبات عند السؤال في القبر بتوفيق الله تعالى، وتقدم هذا في أول الرسالة.

قوله: **(وهو)**؛ أي: دين الإسلام، الذي بعث الله به نبيه ﷺ يقوم على ثلاثة أسس:

الأساس الأول: الاستسلام لله بالتوحيد.

الأساس الثاني: الانقياد لله تعالى بالطاعة.

الأساس الثالث: البراءة من الشرك ومن أهل الشرك.

فهذه الأسس الثلاثة هي التي ينتظمها دين الإسلام. **أما الأول**: فهو **(الاستسلام لله)** بمعنى: الخضوع والذل له سبحانه؛ لأنه من معاني مادة: (أسلم) في اللغة: الطاعة والإذعان، وقد ورد هذا في قول الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، والمسلم سُمِّي بذلك لخضوع جوارحه لطاعة ربه[1]، **وقوله:** **(بالتوحيد)** هذا شامل لتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية؛ والمعنى: أن يستسلم ويخضع لله عَزَّ وَجَلَّ وأن يفرده بربوبيته وألوهيته.

الأساس الثاني: **(الانقياد له بالطاعة)** الطاعة تشمل المأمور

---

(١) انظر: «لسان العرب»: مادة: (سلم).

والبراءةُ مِنَ الشِّرْكِ وأهله.

وهو ثلاثُ مَراتِبَ: «الإسْلامُ» و«الإيمَانُ» و«الإحْسانُ»، وكُلُّ مَرْتَبَةٍ لهَا أَرْكَانٌ، فأركَانُ الإسلام خَمسةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلٰهَ إلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وإِقَامُ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءُ

والمحظور. الطاعة في المأمور بالفعل، والطاعة في المحظور بالترك.

الأساس الثالث: (البراءة من الشرك وأهله)، فلا يتم دين الإنسان إلا إذا تبرأ من الشرك، وأهل الشرك، فلم يشاركهم في اعتقاد، ولا في قول، ولا عمل، ولا مسكن، ولا يتشبه بهم أو يأخذ شيئًا من عاداتهم أو من تقاليدهم، كما مر[(١)].

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

قوله: (وهو ثلاث مراتب)؛ يعني: الدين ثلاث مراتب: **(الإسلام، والإيمان، والإحسان)**، كما في حديث عمر رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله.

والمراتب: جمع مرتبة، والمرتبة والرتبة: هي المنزلة، والمكانة، ورتب الشيء ترتيبًا: أثبته وجعله في مرتبته؛ أي: منزلته[(٢)].

قوله: (وكل مرتبة لها أركان، فأركان الإسلام خمسةٌ: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ

---

(١) انظر: (ص٤٣).
(٢) انظر: «اللسان» (١/ ٤٠٩).

الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ.

الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيتِ الله الحرامِ).

الأركان: جمع ركن، وهو جانب الشيء الأقوى الذي لا يقوم ولا يتم إلا به.

ودليل هذه الأركان الخمسة: حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**»[1].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (والمراد من هذا الحديث أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان وهو قائم، لا ينقص بنقص ذلك، بخلاف نقص هذه الدعائم الخمس، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعها بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين...، وأما إقام الصلاة فقد وردت أحاديث متعددة تدل على أن من تركها فقد خرج من الإسلام... وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف... وذهبت طائفة منهم إلى أن من ترك شيئًا من أركان الإسلام الخمسة عمدًا أنه كافر بذلك...)[2].

فالركن الأول: هو الشهادة، ومعناها: الاعتقاد الجازم، والذي

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم»: شرح الحديث الثالث.

. . . .

ينبئ عن هذا الاعتقاد هو اللسان، فالشهادة: هي الاعتقاد الجازم الذي يعبر عنه اللسان، وأطلق على الاعتقاد لفظ الشهادة؛ لبيان أنه لا بد من الاعتقاد الجازم، والشهادة تكون مقرونة برؤية المشهود عليه أو بسماعه مثلًا، فلما أريد أن هذا الاعتقاد يكون جازمًا عُبِّرَ عنه بلفظ يدل على الجزم، وهو لفظ الشهادة، هذه هي الحكمة ـ والله أعلم ـ من أنه يقال: شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولا يقال اعتقاد. فاختير لفظ الشهادة دون لفظ الاعتقاد من باب التوكيد والجزم، حتى كأنك تشاهد ما تعتقده، والذي تشاهده تشهد به، هذا معنى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ثم هنا مسألة أخرى وهي أنه في هذا الحديث جُعلت الشهادتان ركنًا واحدًا، فلم تجعل شهادة أن لا إلٰه إلا الله ركنًا وتجعل شهادة أن محمدًا رسول الله ركنًا؛ لأن المشهود به متعدد، **والجواب عن هذا السؤال من وجهين:**

الأول: أن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال وقبولها، إذ لا يقبل العمل ولا يكون صحيحًا إلا بأمرين:

١ ـ الإخلاص لله ﷻ.

٢ ـ المتابعة للرسول ﷺ.

فإذا وجد الإخلاص تحقَّقت شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وإذا وجدت المتابعة تحققت شهادة أن محمدًا رسول الله، فإذا كانت الشهادتان هما أساس الأعمال صحَّ أن يكونا ركنًا واحدًا.

فَدَليلُ الشَّهادَةِ قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

الثاني: أن الرسول ﷺ مبلِّغ عن الله، فالشهادة له بالرسالة والعبودية من تمام شهادة أن لا إلٰه إلا الله، فكأن الثانية تكملة للأولى.

أما بقية الأركان فيأتي الكلام عليها ـ إن شاء الله ـ عند سياق المصنف أدلتها.

قوله: (فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]) بدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر الأدلة على الأركان، والآية التي ساقها دليلًا على الشهادة آية عظيمة دلَّت على أعظم شهادة من أَجَلِّ شاهد لأعظم مشهود به، فأعظم شهادة هي شهادة التوحيد، من أَجَلِّ شاهد، وهو (﴿ٱللَّهُ﴾) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم (الملائكة) ثم (أولو العلم) على أعظم مشهود به، وهو أنه لا إلٰه إلَّا الله، ومعنى (﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾)؛ أي: حكم وأعلم وأخبر؛ لأن الشهادة تأتي بهذه المعاني.

وقوله: (﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾)، المراد بالعلم هنا: العلم الشرعي الذي هو نور القلوب وحياتها، والمراد بأولي العلم: الأنبياء والعلماء، وفي **قوله تعالى**: (﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾) دليل واضح على فضل العلم وأهله؛ لأن الله جلَّ وعلا خصَّهم بالذكر، دون بقية البشر، ولو كان أحد يقاربهم في هذا لذُكر معهم، بل لو كان أحد أفضل منهم لذُكر، والله جلَّ وعلا خصَّهم بالذكر وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة، فيصلح أن تكون الآية من الأدلة على فضل العلم من وجهين:

ومعناها: لا معبودَ بِحقٍّ إلا اللهُ.

الوجه الأول: أن الله تعالى خصَّهم بالذكر دون سائر البشر؛ لأن الله لم يذكر من البشر أحدًا إلا أولي العلم، فإنه سبحانه ذكر نفسه المقدسة (﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾)، وذكر الملائكة وهم ليسوا من البشر، ولم يذكر من البشر إلا أولي العلم، فلو كان من البشر من هو أفضل من أولي العلم أو مثلهم لذكر.

الوجه الثاني: أن الله تعالى قرن شهادتهم بشهادته، وهذه رفعة لهم، حيث إنهم يشهدون بألوهية الله ﷻ وإفراده بالعبادة.

وقوله تعالى: (﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾) القسط: هو العدل في القول والعمل والحكم، و(﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾) حال لازمة؛ أي: شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو حالة كونه (﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾). ثم أعاد توحيده مرة أخرى ﷻ، **فقال**: (﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾).

قول المصنف: **(ومعناها)**؛ أي: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، معناها: **(لا معبود بحقٍّ إلا الله)** فلا إلٰه؛ أي: **(لا معبود)**، وأصل إلٰه بمعنى: مألوه، من ألِهَ يألَهُ إلٰهة؛ أي: عبد يعبد عبادة، والتأله في لغة العرب معناه: التعبد. فـ **(لا)** هنا نافية للجنس، وتسمى أيضًا في بعض كتب النحو بـ (لا التبرئة)، فإذا قال: لا إلٰه إلا الله، تبرأ من جميع المعبودات إلا الله، و(إلٰه) اسم **(لا)** والخبر محذوف، للعلم به، والنحويون يقدرون الخبر كلمة (موجود)، وهذا التقدير ليس بصحيح، إذ لا يصح أن يقال: لا إلٰه موجود إلا الله؛ لأن فيه آلهة موجودة كثيرة غير الله ﷻ. مثل الأشجار والأحجار

«لا إلٰهَ» نافيًا جميعَ ما يُعبدُ من دونِ الله. «إلا اللهُ» مُثْبِتًا العبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ، لا شريكَ له في عبَادَتِهِ، كما أنهُ لا شريك له في مُلْكِهِ.

والأشخاص إلى غير ذلك، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]، فهذا التقدير: لا يصلح، والصواب أن يكون التقدير لا إلٰه حق، أو لا إلٰه معبود بحق. (إلا الله) ﷻ، و(إلا) حصر، ولفظ (الله) بدل من الضمير المستتر في الخبر؛ لأن خبر (لا) إذا قلنا: لا إلٰه معبود بحق، أو قلنا: لا إلٰه حق، فيه ضمير مستتر، فيكون لفظ (الله) بدلًا من هذا الضمير، هذا هو إعراب كلمة الإخلاص، وإنما ذكرت إعرابها؛ لأنه قد يمر على الطالب في بعض كتب النحو تقدير الخبر في هذه الكلمة العظيمة بكلمة (موجود)، وقد تبين فساده[(١)].

قوله: («لا إلٰه» نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله، «إلا الله» مُثبِتًا العبادة لله وحده، لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه)؛ أي: إن هذه الكلمة العظيمة اشتملت على نفي وإثبات، فإن معناها: لا معبود بحق إلا إلٰه واحد، وهو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟

---

(١) ومنهم من يرى أن الكلام تام لا يحتاج إلى تقدير خبر، فـ (لا إلٰه) مبتدأ، و(إلا الله) خبره. راجع رسالة: «التجريد في إعراب كلمة التوحيد» تأليف: العلامة الشيخ علي القاري، المتوفى سنة ١٠١٤هـ.

. . . .

ٱلطَّـٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ففيها إثبات الألوهية الحقة لله تعالى، وترك عبادة ما سواه، وأن ما سوى الله ليس بإله حق، وأن إلٰهية ما سواه من أبطل الباطل، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

فـ (**لا إلٰه إلا الله**) اشتملت على أمرين هما ركناها: النفي (**لا إلٰه**)، والإثبات (**إلا الله**)، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض، فلا بد من الجمع بينهما.

يقول الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والإلٰه هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبة له وإجلالًا، ومحبة وخوفًا، ورجاءً وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلٰهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: «لا إلٰه إلا الله»، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك...)[1].

وكما أن الله تعالى هو المتفرد في ملكه، فهو المتفرد بالعبادة؛ لأن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكًا لله في الملك شريكًا معه في العبادة تعالى الله وتقدَّس، ولهذا يحتج تعالى على من أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل على توحيد الإلٰهية، وقد تقدم ذكر ذلك.

---

(١) «كلمة الإخلاص» ص(٢٣، ٢٤).

وتفسيرُها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: (**وتفسيرها الذي يوضحها**)؛ أي: من القرآن، هو هذه الآية وغيرها من الآيات؛ لأن الله تعالى بيَّن هذه الكلمة العظيمة، ولم يَكِل عباده في بيان معناها إلى أحد سواه (**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]) فهذا إبراهيم خليل الرحمٰن عليه السلام يتبرأ من الآلهة التي عليها قومه، ويلزم من هذا أن يتبرأ منهم أيضًا، وهو قد تبرأ من الشرك وأهله مع أنهم أقرب الناس إليه: أبوه، وقومه ـ أهل بابل وملكهم النمرود ـ، **وقوله:** (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾)؛ مصدر يستوي فيه المفرد والمذكر ومقابلهما، قال الواحدي: (مثل قولك: لا؛ لأنه يُتبرأ بها من الشيء)[1]. (﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾)؛ يعني: من الأصنام والأوثان، **وقوله:** (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾) يقابل **قوله:** (**لا إلٰه**)؛ فمعنى: (**لا إلٰه**) هو معنى (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾)، وهذا نفي. (﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) معنى فطرني؛ أي: برأني وابتدأ خلقي، وهذا فيه معنى (**إلا الله**)، ثم **قال** مؤكدًا هذه العقيدة السليمة: (﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾)، والسين هنا للتوكيد، ومعنى يهدين؛ أي: يرشدني ويوفقني إلى سلوك الصراط المستقيم. (﴿وَجَعَلَهَا﴾) الضمير يعود إلى كلمة التوحيد المأخوذة من **قوله:**

---

(١) «التفسير البسيط» (٢٠/ ٣١)، «البحر المحيط» (٨/ ١٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ

(﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) فهذه الكلمة العظيمة وهي كلمة التوحيد جعلها إبراهيم عليه الصلاة والسلام باقية في عقبه، والدليل على أنه جعلها باقية في عقبه؛ أي: نسله وذريته، قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقوله تعالى: (﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾)؛ يعني: لعلَّهم يرجعون من الشرك إلى تحقيق هذه الكلمة، فإن من لم يأت بهذه الكلمة عارفًا معناها عاملًا بمقتضاها وقع في الشرك، ولهذا **قال تعالى**: (﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾)، وهذه الآية من الآيات العظيمة في موضوع العقيدة، **وقد دلَّت على فوائد منها**[1]:

أولًا: أن الآية دليل على وجوب البراءة من الشرك والمشركين، فيصلح أن نستدل بالآية على الجزئية الثالثة التي ذكرها الشيخ قبل قليل وهي البراءة من الشرك وأهله.

ثانيًا: الآية دليل على فضيلة من يورث أولاده هدًى وصلاحًا، وأن الإنسان ينشئ أولاده ويربيهم ويورثهم الاستقامة والصلاح، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعل هذه الكلمة باقية في عقبه وفي ذريته.

الفائدة الثالثة: أن الآية فيها دليل على أن من الكمال العقلي والإدراك السليم أن يتبع المرء الهدى ولو خالفه أهله وقومه وأهل بلده.

قوله: (وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ

(١) انظر: «أيسر التفاسير» (٤/ ١٧٠).

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ....

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]) هذه آية أخرى تدلنا على تفسير الشهادة (﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾)؛ أي: هلمُّوا وأقبلوا (﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾)، قال المفسرون: الكلمة السواء هي الكلمة العادلة، فكلُّ كلمة عادلة يطلق عليها كلمة سواء، ثم وصفها **بقوله**: (﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾)؛ أي: نحن وأنتم سواء في هذه الكلمة، ثم فسَّرها **بقوله**: (﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾) هذا نفي أي: **(لا إلـٰه)**، **وقوله**: **(إلا الله)** هذا إثبات (﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾) هذا لبيان أن العبادة لا تتم إلا بالتخلي عن الشرك؛ لأن من عَبَد الله وأشرك معه غيره لم يحقق المعنى المطلوب من العبادة؛ لأن المعنى المطلوب من العبادة هو إفراد الله تعالى بالعبادة، كما تدل عليه كلمة الإخلاص.

وقوله: (﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾) هذا من مقتضيات كلمة الإخلاص؛ والمعنى: لا يتخذ بعضنا البعض الآخر ربًّا مطاعًا من دون الله، فيفرض طاعته على غيره، فإن هذا يُخِلُّ بمعنى العبادة، وقد ورد عن عدي ﵁ أنه لمَّا تلا عليه الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: «**أليسوا يحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه، ويحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه؟**» قال: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**»[1].

فدل ذلك على أن من مقتضيات كلمة الإخلاص ألا يُتَّخَذَ ربًّا

---

(١) تقدم تخريجه ص(٥٩).

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ومشرِّعًا إلا الله ﷻ، فمن اتخذ غير الله ﷻ مشرِّعًا فقد عبده مع الله، وقد عطف **قوله**: (﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾) على الجملة السابقة؛ لأن من مستلزمات الشهادة أن نفرد الله تعالى بالتشريع، فلا حكم إلا ما شرع الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، **وقوله**: (﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾)؛ أي: امتنعوا وأبوا أن ينقادوا لهذه الكلمة العظيمة (﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾)؛ يعني: صرِّحوا لهم بأنكم مسلمون وأنكم بريئون منهم وما هم عليه.

وعلى هذا فلا تجوز طاعة العلماء ولا الأمراء ولا الرؤساء في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحلَّ الله، ولا الحكم بين الناس بغير ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعرَاف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشّورى: ١٠ ـ ١٢] وفي هذه الآيات بيان لصفات من يستحق أن الحكم له، وقد جاء ذلك في آيات أخرى، فعلى كل عاقل أن يتأمل ذلك، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية، ليتبين له خطورة الأمر. والله المستعان[1].

---

(١) انظر: «أضواء البيان» (٧/ ١٦٣ ـ ١٧٣).

ودليلُ شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللهِ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾.

قوله: (ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨])، هذه الآية دليل على شهادة أن محمدًا رسول الله، وفيها بيان أن الله جلَّ وعلا امتنَّ على هذه الأمة ببعثة هذا الرسول الكريم ووصف هذا الرسول بأنه (من أنفسهم) فهم يعرفون صدقه ونسبه، ويمكنهم الجلوس معه وسماع خطابه وكلامه؛ لأنه ليس بغريب عليهم، **وقوله**: (﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾) أصل العنت بمعنى المشقة، ومعنى (﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾)؛ أي: شديد عليه كل ما فيه مشقة عليكم من آصار وأغلال؛ لأنه ﷺ بُعث بالحنيفية السمحة[1].

ولما تلا الرسول ﷺ على الصحابة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] قال الأقرع بن حابس: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت الرسول ﷺ، وسكوته رحمة لهذه الأمة؛ لأنه قال: «**لو قلتُ نعم لوجبت**»[2]، فيكون الحج واجبًا كل سنة على من استطاع إليه سبيلًا، وهذا فيه من المشقة والضرر ما لا يتحمَّله العباد، لكن من رحمة الله تعالى بعباده أن الحج لا يجب إلا مرة واحدة في العمر، **وقوله تعالى**: (﴿حَرِيصٌ

(١) ورد ذلك من طرق، فراجع: «المنهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد» ص(٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

ومعنى شهادة أن محمدًا رسولُ اللهِ طاعتُه فيما أَمَرَ، وتصديقُه فِيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنه نَهىٰ وَزَجَرَ، وأنْ لا يُعْبَدَ اللهُ إلا بما شَرَعَ.

عَلَيْكُم﴾)؛ أي: على هدايتكم وإنقاذكم من النار، فالرسول ﷺ حريص أشد الحرص على هداية أمته، **وقوله تعالى**: (﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾)؛ يعني: أن الرأفة والرحمة خاصة بالمؤمنين، وأما هدايته فهي عامة لجميع الناس، فمن شاء الله تعالى هدايته اهتدى، ومن شاء الله إضلاله ضل، وقد حرص الرسول ﷺ على هداية عمه أبي طالب، ولكن الله تعالى لم يشأ هدايته. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

قوله: (ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شَرَع) هذه أربعة أمور لا تتم شهادة أن محمدًا رسول الله إلا بها، **فالأول**: أن ما أمر به رسول الله ﷺ فلا بُدَّ من طاعته فيه، وقد يكون الأمر أمر إيجاب أو أمر استحباب، وقد دلَّت النصوص على أن الأمر الواجب لا بد من طاعته فيه، وأن الأمر المستحب الذي تدل الأدلة والقرائن على أنه مستحب ليس على وجه الإلزام، وهذه هي الحكمة من بعثة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وإنما يطاع الرسول ﷺ لأنه يأمر بأمر الله، فشرعه ﷺ هو شرع الله تعالى. قال

---

(١) أخرج قصة النبي ﷺ مع عمه: البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٣٩)، (٢٦).

. . . .

تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، وكثير من الناس يُخِلُّ بهذا الجزء من الشهادة، فهو ينطق بها في صلاته وفي سماعه للأذان، يشهد أن محمدًا رسول الله، لكنه يخل بتحقيق هذه الشهادة في مجال العمل والتطبيق، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

قوله: (وتصديقه فيما أخبر)، هذا الأمر الثاني، وهو أنه لا بد من تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به، ومن كذَّب الرسول ﷺ فهو لم يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله، وإنما وجب تصديقه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، فخبره صدق قطعًا.

قوله: (واجتناب ما عنه نهى وزجر) هذا الأمر الثالث، وقد أخل به كثير من الناس أيضًا؛ فارتكبوا ما نهى عنه رسول الله ﷺ من الأقوال والأفعال في العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك، وهذا دليل على ضعف الإيمان، نسأل الله السلامة، وقد ثبت الدليل على الفرق بين الأوامر والنواهي، فالأوامر حسب قدرة المكلف، وأما النواهي فلم تقيد بالقدرة مما يدل على وجوب الانتهاء، وقد دل على ذلك قوله ﷺ: «**ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتُكم به فأْتوا منه ما استطعتم...**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧). وانظر شرح الحافظ ابن رجب على هذا الحديث في: «جامع العلوم والحكم» الحديث التاسع.

. . . .

قوله: (وألا يعبد الله إلا بما شرع) هذا الأمر الرابع، وهو يدل على ركن أساسي من أركان العبادة والدين، وهو: أن العبادة ليست بالأهواء ولا بالبدع ولا بالاجتهاد الذي لم يُبْنَ على دليل صحيح، وإنما العبادة مبنية على الاتباع وما جاء به الشرع، وهذا أصل عظيم من أصول الدين الإسلامي، وهو: ألا نعبد الله إلا بما شرع، إضافة إلى الأصل الأول العظيم، وهو: ألا نعبد إلا الله، وهذا هو الإخلاص، وما قبله هو المتابعة، فلا يجوز لأحد أن يعبد الله تعالى إلا بما شرع، وليس لأحد أن يقول: إن هذا مشروع أو مستحب إلا بدليل شرعي، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب[(١)].

وقد جاءت النصوص الشرعية تأمر بالاتباع وتنهى عن الابتداع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/١٦٠).

. . . .

وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «**فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(١)].

وطريق النجاة أن يلتزم المسلم سُنّة المصطفى ﷺ ويقتفي أثره، فما فعله الرسول ﷺ على وجه التعبد والطاعة فهو عبادة نتأسى به فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وما صح من أقواله وتقريراته فهو سُنّة يعمل بها، قال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(٢)]، وقال في الحج: «**لتأخذوا مناسككم**»[(٣)].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (وأما متابعة الرسول ﷺ فواجب على أمته متابعته في الاعتقادات والأقوال والأفعال. . . فتوزن الأقوال والأفعال بأقواله وأفعاله، فما وافق منها قُبل، وما خالف رُدَّ على فاعله كائنًا من كان، فإن شهادة أن محمدًا رسول الله تتضمن تصديقه فيما أخبر به، وطاعته ومتابعته في كل ما أمر به، وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قيل:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، وأحمد (٣٦٧/٢٨، ٣٧٣، ٣٧٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، والحديث له طرق وشواهد.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١)، من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه، والحديث عند مسلم ـ أيضًا ـ: (٦٧٤) لكن هذه الجملة تفرد بها البخاري.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

. . . .

ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**» . . .)[(١)] .

---

(١) انظر: القسم الخامس من «مؤلفات الشيخ» الرسائل الشخصية ص(١٠٦)، والحديث المذكور تقدم ص(٣٥).

ودليلُ الصلاةِ والزكاةِ وتفسيرُ(١) التَّوْحِيدِ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

قوله: (ودليلُ الصلاةِ والزكاةِ وتفسيرُ التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]) هذه الآية الكريمة كما ذكر المصنف فيها دلالة على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: على وجوب الصلاة، وذلك من **قوله**: (﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾).

الأمر الثاني: (﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾)؛ لأن الفعل (يقيموا) معطوف على الفعل (ليعبدوا) الذي دخلت عليه لام الأمر، فالآية فيها أمر بإقامة الصلاة وأمر بإيتاء الزكاة.

الأمر الثالث: تفسير التوحيد، وهو من **قوله**: (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) فهم مأمورون بالعبادة، وهذا مستفاد من طريق القصر، وهو الاستثناء بعد النفي في **قوله**: (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾)، ويضاف إلى هذا الإخلاص، وهو ألا يشرك مع الله غيره، فيكون **قوله تعالى**: (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) هو معنى (لا إلٰه إلا الله)؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، ولا يتم هذا إلا بإفراد الله تعالى بالعبادة، والضمير في **قوله**: (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾) يعود إلى مَنْ تقدم ذكرهم في الآيات التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ

(١) ضبطت في أكثر النسخ بالرفع، وفي بعضها بالكسر، ولكلٍّ توجيه.

....

كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ١ ـ ٥]؛ أي: وما أُمِرَ هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل (﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾)[١].

وهذه الآية فيها دليل كما يقول الأصوليون على أن الكفار مخاطبون بالأوامر والنواهي؛ لأن الله جلَّ وعلا أمرهم بإفراده بالعبادة، وأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة مع أنهم وقت الأمر كفار، مما يدل على أن الكافر مأمور بالصلاة وبالزكاة، ومأمور بالإيمان، كما أن الإنسان إذا دخل عليه وقت الظهر ـ مثلًا ـ وهو مُحْدِث مأمور بالصلاة حال الحَدَث ولو لم يتوضأ، ولا تصح الصلاة إلا بالوضوء، وهكذا الكافر مأمور بالصلاة والصيام والزكاة والحج حال الكفر، ولكنها لا تصح منه إلا بالإيمان[٢]، **وقوله تعالى**: (﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾) القيمة: وَصْفٌ لمقدَّر، والتقدير ـ والله أعلم ـ: وذلك دين الملة القيمة، ومعنى (القيمة): المستقيمة.

والصلاة هي: التعبُّد لله تعالى بأقوال وأفعال على هيئة مخصوصة مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، وفي الآية السابقة جاء اللفظ **بقوله**: (﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾)، وإقامة الصلاة هو التعبد لله تعالى بفعلها على وجه الاستقامة والتمام في أوقاتها وهيئاتها، فيأتي بها

(١) «تفسير القرطبي» (٢٢/ ٤١١).
(٢) انظر: «شرح الورقات» لراقمه ص(٨١).

....

وافية الأركان والواجبات حريصًا على سننها القولية والفعلية. هذا هو معنى إقامة الصلاة، ولهذا نلاحظ أن الله جلَّ وعلا لم يذكر الصلاة في القرآن إلا بإقامتها أو بالمداومة عليها أو بالمحافظة عليها، ولم يقل: يا أيها الذين آمنوا صلُّوا، أو إن الذين يصلُّون، أو إن المصلِّين، بل قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣ وغيرها من السور]، ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، وهذا يدل على أن هناك أمرًا مقصودًا غير مجرد الصلاة، ألا وهو إقامة الصلاة.

ومن ثمرات إقام الصلاة أنها صلة بين العبد وربه، فيها انشراح الصدر، وقرة العين، والهداية إلى فعل الخير، والانزجار عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال النبي ﷺ: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[(١)].

وأما الزكاة فهي: جزء واجب في مال مخصوص لطائفة أو جهة مخصوصة، فالطائفة مثل: (الفقراء)، والجهة مثل: (في سبيل الله).

ومن ثمرات إخراج الزكاة تطهير نفس الغني من الشح والبخل، وتطهير نفس الفقير من الحسد والضغينة على الأغنياء، وسد حاجة الإسلام والمسلمين، وطُهرة المال، وحصول الآثار الطيبة على البلاد والعباد.

(١) أخرجه النسائي (٦١/٧)، وأحمد (٣٠٥/١٩) (٤٣٣/٢١)، وهو حديث حسن.

ودليلُ الصيام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.

قوله: (ودليل الصيام قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]) الصيام هو: الإمساك عن المفطرات تعبدًا لله تعالى من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقلنا: (تعبدًا)؛ لأن الإنسان قد يُمسك عن الأكل والشرب لمرض، أو لِحِمْية، أو نحو هذا.

وفي الصيام فوائد عظيمة وفضائل جسيمة من التعبد لله تعالى بترك شهوات النفس، وتربية الإرادة، وجهاد النفس، وتعويدها على الصبر والتحمُّل، وإشعار الصائم بنعم الله عليه، وفي الصوم فوائد صحية، وهو أكبر عون على تقوى الله ﷻ، وفيه من جزيل الأجر ما لو تصورته نفس صائمة لطارت فرحًا وتمنَّت أن تكون السنة كلها رمضان.

وقد شبَّه الله جلَّ وعلا كتابة الصيام علينا بأنها ككتابة الصيام على من قبلنا، **فقال**: (﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾) وهذا تشبيه فرض بفرض، لا تشبيه مفروض بمفروض؛ بمعنى: أنه كما وجب عليهم الصيام، فالصيام واجب علينا، وليس الصيام الذي فرض علينا كالصيام الذي فرض عليهم، ولهذا كان هذا الصيام في أول الإسلام له صفة خاصة حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقد دلَّت السُّنَّة على المعنى الذي أشرت إليه[(١)].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٠٦/١)، و«تفسير الطبري» تحقيق: محمود وأحمد شاكر (٤٠٩/٣).

....

والمقصود أن صيامهم يختلف عن صيامنا، فصيام شهر بتمامه بالصفة المعروفة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس من خصائص هذه الأمة.

وقوله تعالى: (﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾) لعل هنا للتعليل بمعنى: لأجل أن يكون هذا الصيام وقاية لكم من عذاب الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولا ريب أن الصيام من أعظم دواعي التقوى لو كان الإنسان يصوم الصيام الشرعي المطلوب، فإذا أخلَّ بشيء من واجبات الصوم وآدابه فقد لا يورثه تقوى ولا صلاحًا.



ودليلُ الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

وقوله: (ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ [آل عمران: ٩٧]) الحج هو: قصد مكة لأداء مناسك الحج في زمن مخصوص، **وقوله تعالى: (﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾)** على: للوجوب، والمراد بالناس: بنو آدم، مؤمنهم وكافرهم؛ فالحج يجب على المؤمن والكافر، وهذا من الأدلة التي تدل على أن الكفار مخاطبون بالأوامر، كما تقدم.

ومعنى: (﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾)؛ أي: قصد الكعبة لأداء مناسك الحج. (﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾)؛ يعني: من أطاق الوصول إليه، والمراد بالسبيل: الطريق، والاستطاعة على قدر طاقة الناس، فكل من استطاع بماله أو بدنه وجب عليه الحج؛ لأنه داخل في هذا العموم[(١)].

وقوله تعالى: (﴿وَمَن كَفَرَ﴾)؛ أي: أنكر وجوب الحج وجحد فريضته، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد من السلف[(٢)]. (﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)؛ أي: كثير الخير لا يحتاج إلى أحد من الخلق سبحانه وتعالى، فمن ترك الحج ممن يجب عليه كَفَر. لكن إن كان تركه له إنكارًا لوجوبه فهذا كُفر أكبر مُخْرِجٌ من الملَّة، وإن كان تركه للحج غير مُنْكِرٍ لوجوبه فقد نصَّ العلماء على أن هذا كفر أصغر لا يُخرج عن الملة[(٣)]، وإطلاق كلمة (كفر) على بعض الأعمال التي

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٧/٤٣ ـ ٤٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (١/٢٨٨).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٨٦).
(٣) هذا قول في المسألة، ويرى آخرون أن من ترك شيئًا من أركان الإسلام الخمسة عمدًا =

. . . .

لا تُخرج من الملة وارد في لسان الشرع، فقد روى أبو هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»[1]؛ أي: هما من أعمال الكفر وأخلاق الجاهلية[2].



= أنه كافر، وقد تقدم ذكر ذلك ص(١١٦). راجع: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: شرح الحديث الثالث.

(١) أخرجه مسلم (١٢١).

(٢) قاله النووي في «شرحه على مسلم» (٤١٧/٢). وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢١١/١) ففيه بيان الفرق بين ما ورد من لفظ الكفر معرّفًا بـ (أل) وبين ما جاء بدونها.

(المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ):

الإيمانُ، وهو بِضْعٌ وسبعونَ شُعْبَةً، فأَعلاها قولُ: لا إلٰه إلا اللهُ، وأَدْنَاهَا إماطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ.

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **(المرتبة الثانية)**؛ يعني: من مراتب الدين بعد الكلام على المرتبة الأولى، وهي الإسلام، فالمرتبة الثانية: **(الإيمان)** والإيمان هو: التصديق الجازم بجميع ما أمر الله ورسوله بالتصديق به المتضمن للعمل الذي هو الإسلام، فالإيمان يجمع التصديق لجميع ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به إضافة إلى الأعمال التي هي أركان الإسلام، وسأذكر ـ إن شاء الله ـ الفرق بين الإسلام والإيمان عند الكلام على حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: **(وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قولُ: لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)** هذا لفظ الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه»، ورواه البخاري بلفظ: «**بضع وستون**»، وقد ورد عند مسلم برواية أخرى بالشك: «**بضع وستون أو بضع وسبعون**»[(١)]. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن المعول على المتيقن، وهو الأقل، وهو بضع وستون)[(٢)]، فإن قيل: بضع وسبعون زيادة من ثقة، والزيادة من الثقة مقبولة، قيل: **أولًا**: أن زيادة الثقة ليست مقبولة على الإطلاق، بل المعوَّل في قبولها أو ردِّها على القرائن. **وثانيًا**: أن الراوي لم يجزم بها، فتكون

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٥٧، ٥٨)، (٣٥).

(٢) «فتح الباري» (٥٢/١).

. . . .

رواية «**بضع وستون**» أرجح، لكن قد يشكل على هذا أن مسلمًا روى الحديث على روايتين، مرة ليس فيها شك «**بضع وسبعون**»، ومرة فيها شك «**بضع وستون أو بضع وسبعون**»؛ ولهذا رجح القاضي عياض والحَليمي رواية: «**بضع وسبعون**»، والبِضْعُ بكسر الباء اسم من أسماء العدد، يطلق على العدد من الثلاثة إلى التسعة، **وقوله**: (**شعبة**)؛ أي: خصلة، وأصله من الشُّعبة؛ بمعنى: القطعة.

وهذا الحديث يدل على أن شعب الإيمان متفاوتة؛ لأن الرسول ﷺ ذكر أعلاها، وذكر أدناها، وترك ما بين ذلك، ولم يرد في السُّنَّة نص يحدد هذه الشعب، وقد اجتهد جمع من أهل العلم في عدها وفي حصرها، فمنهم من وصل إلى هذا العدد؛ فجمع أوامر الشريعة ومكارم الأخلاق وكل ما هو من باب البر؛ فوصل إلى هذا العدد، ومنهم من قارب هذا العدد، ويكفي أن نعلم أن كل خصلة من خصال الخير فهي من شعب الإيمان[1].

وقوله: (**فأعلاها قول: لا إلٰه إلا الله**) هذه أعلى الشعب، وهي كلمة الإخلاص، وكلمة الإسلام، وهي كلمة التقوى، وهي أساس الملة، وفي هذا دليل لمن قال: إن هذه الكلمة أفضل الكلام

---

(١) انظر: «إكمال المعلم» (١/ ٢٧٢)، «فتح الباري» (١/٥٢)، «شرح النووي» (١/٣٦٢)، «فتح الباري» للحافظ ابن رجب (١/٣٠)، وقال ابن الصلاح في «صيانة صحيح مسلم» ص(١٩٧): (ثم إن الكلام في تعيين هذه الشعب يتشعب ويطول، وقد صنف في ذلك مصنفات، من أغزرها فوائد: كتاب «المنهاج» لأبي عبد الله الحليمي، إمام الشافعيين ببخارى، وكان من رفعاء أئمة المسلمين، وحذا حذوه الحافظ الفقيه أبو بكر البيهقي في كتابه الجليل الحفيل: «شعب الإيمان»). وانظر: «صحيح ابن حبان» (١/٣٨٧).

. . . .

مطلقًا، وإنها أفضل من كلمة (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)، وفي المسألة خلاف بسطه وذكر أدلته الحافظُ ابن عبد البر في «التمهيد»[١]، **وقوله**: **(أدناها)**؛ يعني: أقل شعبة من شعب الإيمان **(إماطة الأذى عن الطريق)**؛ أي: تنحية الأذى عن طريق الناس من نجاسة، أو حجر، أو شوك، أو نحو هذا، وإذا كان إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان؛ فعدم وضع الأذى في الطريق ـ أيضًا ـ من شعب الإيمان، فلا يخرج الإنسان من بيته أشياء تؤذي المارة من رائحة أو حجر أو شوك يجرح أقدامهم إذا مشوا عليها أو تكون سببًا في أذيتهم أو نحو ذلك.

وقوله: **(والحياء شعبة من الإيمان)** الحياء ـ بالمدِّ ـ: هو خُلُق رفيع يبعث على فعل الخير واجتناب القبيح، وهو من أفضل الأخلاق وأعظمها قدرًا، وإنما كان الحياء بعضًا من الإيمان؛ لأن الإيمان ائتمار وانتهاء، والمستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصي.

وقد دلَّ على ذلك قول المصطفى ﷺ: **«إن ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِي فاصنع ما شئت»**[٢]، وهذا أمر تهديد؛ ومعناه: الخبر؛ أي: من لم يستح صنع ما شاء، وقيل: إنه

(١) انظر: «التمهيد» (٤٢/٦)، و«فتح الباري» لابن رجب (١٣٤/١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤)، (٦١٢٠) من حديث أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه، وقوله: «إذا لم تستحِي» بإثبات الياء مكسورة الحاء، ويكون الجازم حَذْفَ الياء الثانية؛ لأنه من استحيا. وقيل: «إذا لم تستح» بحذف الياء للجازم مع كسر الحاء مخففة من استحى. قاله الجرداني في «شرحه على الأربعين» ص(١٤٦). وانظر: «منحة العلَّام» (٣٣٤/١٠).

وأَركانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِن بِالله وَمَلَائِكَتِهِ........................

أمر إباحة؛ أي: انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان ممَّا لا يُستحى منه فافعله، والأول أصح، وهو قول الأكثرين[(١)].

قوله: (وأركانه ستة) لا منافاة بين أركان الإيمان وشعب الإيمان؛ لأن المقصود أن الإيمان إذا كان بمعنى الاعتقاد فهو الأركان الستة؛ لأن كل الأركان الستة اعتقاد، وأما إذا قلنا: إن الإيمان يشتمل على الأعمال وأنواعها وأجناسها فهو بضع وسبعون، فحديث الأركان مراد به الأمور الاعتقادية، وهي الأساسيات في الإيمان، وأما حديث: «**بضع وسبعون**» فهذا مراد به: بيان خصال الخير التي هي الأعمال.

قوله: (أن تؤمن بالله) هذا الركن الأول، **والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:**

الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، وقد تقدم ذلك.

والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته؛ ومعناه: إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قوله: (وملائكته) هذا الركن الثاني، وهو الإيمان بالملائكة،

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٥٩).

. . . .

والملائكة: عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، عابدون لله تعالى، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يعلم عددهم إلا الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]، ومما يدل على كثرة عددهم وأنه لا يحصيهم إلا الله ﷻ، ما ورد في الحديث ـ المتفق عليه ـ فيما يتعلق بالبيت المعمور أن الرسول ﷺ قال: «**إن البيت المعمور في السماء السابعة حِيَالَ الكعبة، يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه**»(١)، وهذا دليل على كثرة عدد الملائكة وأنه لا يحصيهم إلا الله تعالى.

والإيمان بالملائكة لا يتم إلا إذا تحقق فيه **أربعة أمور**:

الأول: الإيمان بوجودهم، وأنهم مخلوقون، عابدون لله، قائمون بما أُمروا به.

والأمر الثاني: الإيمان باسم من عَلِمْنا اسمه، ومن لم يُعلم اسمه فالإيمان به إجمالًا، وقد علم من النصوص في الكتاب والسُّنَّة أسماء بعض الملائكة كجبريل: الموكل بالوحي، وميكائيل: الموكل بالقطْر والنبات، وإسرافيل: الموكل بالنفخ في الصور، وملَك الموت: الموكل بقبض الأرواح، فهؤلاء الملائكة نعرف أسماءهم فنؤمن بهم. أما البقية الذين لا نعرف أسماءهم فنؤمن بهم إجمالًا، وملك الموت يرد في بعض الآثار أنه (عزرائيل) وهذا لم يثبت،

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٥٩)، (١٦٢).

. . . .

فاسمه الصحيح ملك الموت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

الثالث: الإيمان بما عَلِمْنا من صفاتهم وهيئاتهم، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله ﷺ جبرائيل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدرّ والياقوت ما الله به عليم»[1]، والمراد بالتهاويل: الأشياء المختلفة الألوان.

فهذا يدل على قدرة الخالق جلَّ وعلا، ويدل على صفة جِبْرائيل عليه السلام وأن له ستمائة جناح، الجناح الواحد يسد الأفق، ولا يقال: إن الرسول ﷺ كيف يرى ستمائة جناح؟ وكيف عد الرسول ﷺ الستمائة مع أن الجناح الواحد قد سد الأفق؟ لأنه: ما دام أنه قد ورد الحديث، وصحح العلماء إسناده فلا نبحث في الكيفية؛ لأن الله جلَّ وعلا قادر على أن يُرِيَ نبيه ﷺ ما لا نتصوره نحن، بل ولا تتحمله عقولنا.

الأمر الرابع: الذي لا بد منه في موضوع الإيمان بالملائكة: الإيمان بما علمنا من أعمالهم ووظائفهم التي دلَّت عليها النصوص، فجبريل عليه السلام موكل بالوحي، وملك الموت موكل بوظيفة قبض

---

(١) «المسند» (٦/٢٩٤، ٣٢٠) (٧/٣١). قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/٤٤) بعد سياق الحديث من عدة طرق: «هذه أسانيد جيدة قوية، انفرد بها أحمد».

وَكُتُبِهِ ....

الأرواح، وهناك ملك موكل بالجنين في بطن أمه، يكتب رزقه وأجله، وعلمه، وشقاءه وسعادته، وهناك ملائكة موكلون ببني آدم ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، وهناك ملائكة موكلون بكتب أسماء الناس يوم الجمعة قبل دخول الخطيب[(١)]، إلى غير ذلك مما تدل عليه النصوص.

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكتبه)** هذا الركن الثالث، وهو الإيمان بالكتب، والمراد بها: الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى على رسله هداية للبشرية ورحمة بهم، ليصلوا إلى سعادة الدارين.

والإيمان بالكتب لا يتم إلا بأربعة أمور:

أولًا: الإيمان بأنها منزلة من عند الله حقًّا.

والثاني: الإيمان بما عَلِمْنا اسمه منها؛ كالقرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وأما ما لا نعرفه منها فنؤمن به إجمالًا.

والأمر الثالث: التصديق بما صحَّ من أخبارها؛ كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يحرف وما لم يبدل من أخبار الكتب السابقة، مثل الرجم، فإنه من الأخبار التي لم تحرف فيما حُرِّف من التوراة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ، وهذا بالنسبة لكتابنا وهو القرآن، وما لم ينسخ من أخبار الكتب السابقة مثل الرجم، فإن الرجم ثبت في شريعتنا، وهذا دليل على أنه لم ينسخ.

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٨٨١)، (٣٢٠٨)، ومسلم (٥٨٠).

وَرُسُلِهِ...

والكتب السابقة كلها نُسخت بالقرآن العظيم الذي تكفَّل الله بحفظه؛ لأنه سيبقى حجة على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة، ويترتب على ذلك أنه لا يجوز التحاكم إلى شيء منها بحال من الأحوال، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قوله: (ورسله) هذا الركن الرابع، وهو الإيمان بالرسل، والرسل جمع رسول، وهو: من بعثه الله إلى قوم وأنزل عليه كتابًا أو لم ينزل عليه كتابًا، لكن أوحى إليه بحكم لم يكن في شريعة من قبله، وأما النبي فهو: من أمره الله أن يدعو إلى شريعة سابقة دون أن ينزل عليه كتابًا، أو يوحي إليه بحكم جديد ناسخ أو غير ناسخ، وعلى ذلك فكل رسول نبي وليس العكس، وقيل: هما مترادفان، والأول أصح[(١)]. بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، فذكر الله تعالى أن أنبياء بني إسرائيل يحكمون بالتوراة، مع أن التوراة أنزلت على أول نبي منهم، وهو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، **والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:**

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من عند الله تعالى، وأنهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم، كما قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

(١) انظر: كتاب «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(١٧٢)، و«الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٦ ـ ٧)، و«أضواء البيان» (٥/٧٣٥)، و«مذكرة التوحيد» للشيخ عبد الرزاق عفيفي ص(٤٥)، «دراسات في النبوة والرسالة» ص(٨٣).

واليومِ الآخِر، وتؤمن بالقَدَر خيرِه وَشَرِّه، ....

الثاني: الإيمان بمن عَلِمْنا اسمه منهم، وأن هناك رسلًا نؤمن بهم إجمالًا ولا نعرف أسماءهم؛ لأنه لم يذكر من أسمائهم إلا القليل.

الثالث: تصديق ما صحَّ عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد ﷺ[١].

قوله: (واليوم الآخر) هذا الركن الخامس، وهو الإيمان باليوم الآخر، والمراد به: يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلق للحساب والجزاء، وسُمي باليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده، حيث يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، **والإيمان باليوم الآخر لا يتم إلا بثلاثة أمور**:

الأول: الإيمان بالبعث.

الثاني: الإيمان بالحساب والجزاء.

الثالث: الإيمان بالجنة والنار.

وسيأتي الكلام على البعث، والحساب والجزاء، إن شاء الله.

قوله: (وتؤمن بالقدر خيره وشره) هذا الركن السادس، والمراد بالقدر: تقدير الله تعالى لما سيكون حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته سبحانه وتعالى، **والإيمان بالقدر لا يتم إلا بأربعة أمور**:

(١) انظر: «نبذة في العقيدة الإسلامية» ص(٢٧، وما بعدها).

والدليلُ على هذه الأَركانِ الستةِ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية.

الأول: الإيمان بعلم الله تعالى وأنه عالم بما كان وما يكون وكيف يكون.

والثاني: الإيمان بالكتابة وأن الله كتب ما علم أنه كائن إلى يوم القيامة.

والثالث: الإيمان بأنه لا يحصل في هذا الكون إلا ما شاء الله.

والرابع: الإيمان بأن الله جلَّ وعلا خلق الخلق وأعمالهم وأفعالهم. قال الناظم:

عِلْمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُه وخَلقُه وهو إيجادٌ وتكوينُ

قوله: (والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]**)** فهذه الآية اشتملت على خمسة من أركان الإيمان. **قال تعالى: (﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾)**؛ يعني: ليس البر في التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب، ولكن البر الحقيقي في الإيمان وتوابع الإيمان من الأعمال الصالحة، أما مجرد الاتجاه فهذا لا يدل على المقصود، وإلا فقد ذكر العلماء أن اليهود يتجهون إلى المغرب، والنصارى يتجهون إلى المشرق، ولكن الله نفى أن يكون هذا هو البر؛ لأنهم لم يحققوا الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين... إلخ؛ فلهذا نفى الله تعالى البر عن

وَدليل القدَرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾.

عملهم هذا، **وقال**: (﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾)، و(البرَّ) بالنصب خبر مقدم لـ (ليس) و(أنَّ) وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسمها مؤخر، والتقدير: (ليس البرَّ توليةُ وجوهِكم)، والبر: اسم جامع لكل عمل من أعمال الخير من العقائد والأعمال، وقد نقل ابن كثير في «تفسيره» عن سفيان الثوري أنه قال: (هذه أنواع البر كلها)، وقال ابن كثير: (من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله)[(١)].

قوله: (ودليل القدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩])؛ أي: إنا خلقنا كل شيء من المخلوقات العلوية والسفلية بتقدير سابق لخلقنا له، وذلك بكتابته في اللوح المحفوظ، فهو يقع كما كُتب بوقته وقدره، وجميع ما اشتمل عليه من الصفات. قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢][(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت

(١) ورد في هذه الآية حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ فتلا عليه النبي ﷺ هذه الآية، ولكن قال ابن كثير: إن هذا الحديث منقطع؛ لأنه من رواية مجاهد عن أبي ذر، ومجاهد لم يدرك أبا ذر، فإنه مات قديمًا، هكذا قال الحافظ ابن كثير. أما الحافظ ابن حجر فقد ذكر الحديث في «فتح الباري» وقال: (رجاله ثقات، وإنما لم يخرجه البخاري؛ لأنه ليس على شرطه)، وقد أشكلت عليَّ هذه العبارة (لأنه ليس على شرطه)؛ إذ لو كان الحافظ يرى أن الحديث منقطع لم يقل لأنه ليس على شرطه، وكلمة: رجاله ثقات ليست دليلًا على اتصال السند ولا على صحة الحديث، كما هو معروف في علم المصطلح. ثم رأيت في إتحاف المهرة (١٨٣/١٤) للحافظ ابن حجر نفسه ما يوافق كلام ابن كثير. والله أعلم.

(٢) «تفسير ابن سعدي» ص(٨٢٨)، «أيسر التفاسير» (٣٧٠/٤).

. . . .

رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١).

وعن طاوس رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: قال رسول الله ﷺ: «**كل شيء بقدر، حتى العَجْزُ والكَيْسُ، أو الكَيْسُ والعَجْزُ**»(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السُّنَّة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل بَرْئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية(٣) الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ...)(٤).



(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، والكيس: ضد العجز، وهو النشاط والحذق بالأمور، ومعناه: أن العاجز قد قدر عجزه، والكيس قد قدر كيسه. قاله النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) وهم الذين يقولون: إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر، وهذا يرده الشرع؛ لأنه مخالف لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ويرده العقل فإن الكون ملك لله تعالى، والإنسان من هذا الكون، فهو مملوك لله تعالى. وليس للمملوك أن يتصرَّف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته. «نبذة في العقيدة الإسلامية» ص(٦٣، ٦٤).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٧/٤٥٧).

(المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ):

الإِحسانُ. رُكْنٌ واحدٌ.

وهو أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك.

قوله: **(المرتبة الثالثة: الإحسان. ركن واحد).**

الإحسان في الأصل نوعان: إحسان في عبادة الخالق وهو المراد هنا، وإحسان في حقوق الخلق، وهو نوعان:

إحسان واجب، وهو أن تقوم بحقوقهم الواجبة على أكمل وجه، كَبِرِّ الوالدين وصلة الأرحام والإنصاف في جميع المعاملات، ويدخل في هذا النوع الإحسان إلى البهائم، ومنه الإحسان في القتل، لما ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة**»[1].

النوع الثاني: الإحسان المستحب؛ وهو ما زاد على الواجب من بذل نفعٍ بدني أو مالي أو علمي، فيساعد الإنسان من احتاج إلى مساعدته ببدنه أو بماله أو بعلمه، فهذا كله داخل في باب الإحسان، وأجلّ أنواع الإحسان: الإحسان إلى من أساء إليك، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥][2].

قوله: **(ركن واحد، وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).**

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

(٢) انظر: «بهجة قلوب الأبرار» ص(١٥٦).

....

معنى قوله: **(أن تعبد الله)**؛ أي: تقوم بعبادة ربك من عبادة بدنية: من صلاة وصيام، أو عبادة مالية: كذبح الأضاحي والهدايا أو الصدقة، أو بدنية مالية: كالحج، تقوم بهذه العبادة على هذه الحال **(كأنك تراه)**؛ أي: كأنك ترى معبودك وتشاهده؛ فيبعث هذا على أمرين:

الأمر الأول: الإخلاص لله ﷻ بعبادته، فلا يعبده رياء ولا سمعة ولا مدحًا وهو يعتقد أن الله يراه.

الثاني: أن يتقن العبادة ويحسن أداءها، فيصلي صلاة من يشاهده ربه وهو يرى ربه، ولا ريب أن المسلم لو حقق هذا المعنى؛ لكان من أكبر الدواعي على إخلاص العبادة وإتقانها؛ ولكان من أكبر الدواعي على عدم شرود ذهن الإنسان في صلاته وانشغاله بأفكار أو بهواجس ترد عليه أثناء الصلاة.

وهذه هي الدرجة الأولى من درجات الإحسان، وهي الدرجة العظمى، وهي درجة المراقبة، تليها درجة أخرى، وهي **قوله**: **(فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**؛ أي: إذا لم تعبده كأنك تراه وتشاهده فاعبده على مرأى منه ﷻ، فإنه يرى ما تفعل ويسمع ما تقول. فهما درجتان، والدرجة الأولى هي العظمى؛ لأن الدرجة الثانية درجة عامة؛ لأن الله جلَّ وعلا يرى جميع الخلق، لكن الدرجة الأولى لا تكون إلا لصاحب الإحسان الذي يعبد ربه كأنه يراه.

والمصنف رحمه الله أَخَّرَ المرتبة الثالثة وهي مرتبة الإحسان؛ لأنها أضيق المراتب الثلاث؛ لأن أصحابها هم الخُلَّصُ من عباد الله

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾.

الصالحين، ولهذا يقول العلماء: إذا تحقق الإحسان تحقق الإيمان والإسلام، وكلُّ محسنٍ مؤمنٌ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلم مؤمنًا محسنًا(١)، وقد صوَّر بعض العلماء هذه المراتب الثلاث بثلاث دوائر، كل واحدة داخل الأخرى.

الدائرة الأولى: وهي الدائرة الواسعة، دائرة الإسلام؛ لأن أهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان، فقد يكون مسلمًا في الظاهر ولا يكون مؤمنًا، كما سيأتي بعد قليل ـ إن شاء الله ـ، فأوسع دائرة هي دائرة الإسلام، وفي داخلها دائرة الإيمان، وأضيق منها دائرة الإحسان، فمن وُجِدَ داخل الدوائر الثلاث فهو مسلم مؤمن محسن، وإن خرج من الدائرة الصغرى ـ ونعني بها دائرة الإحسان ـ فهو مؤمن مسلم، وإن خرج من الدائرة الثانية فهو مسلم في الظاهر وليس بمؤمن، ومن باب أولى لن يكون محسنًا، فأهل الإحسان هم الصفوة وهم الخلَّص من عباد الله المؤمنين، ولهذا ورد في حقهم في القرآن ما لم يرد في حق غيرهم.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨])، فهذه الآية فيها دليل على فضل المحسنين الذين اتقوا الله جلَّ وعلا، فلم يتركوا فرائضه، ولم ينتهكوا محارمه، وهذه المعية معية خاصة، معية نصر وتأييد وتسديد، زيادة على المعية العامة، ومعنى **قوله تعالى**: (﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾)؛ أي: في

---

(١) انظر: كتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية.

طاعة ربهم وعبادته، إخلاصًا في النية والقصد، وأداءً على ما شرع الله وبيَّن رسوله ﷺ.

قوله: (**وقوله تعالى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠]) هذه الآيات ـ أيضًا ـ فيها دليل على الإحسان، وهو **قوله**: (﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾) فالله جلَّ وعلا يأمر نبيه ﷺ أن يتوكل على ربه في جميع أموره؛ لأنه سبحانه وتعالى (عزيز)؛ أي: قوي لا يُغلب، (رحيم)؛ أي: بالمؤمنين من عباده (﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾)؛ أي: تقوم إلى الصلاة فتصلي متهجدًا من الليل وحدك. (﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾) الواو حرف عطف. و(تقلب) معطوف على الكاف، والتقدير: الذي يراك ويرى تقلبك، ومعنى (يرى تقلبك في الساجدين)؛ أي: يرى تقلبك مع المصلين، والمراد بالتقلب: الركوع والسجود والقيام، فهو معك يسمع ويرى، ثم **قال تعالى**: (﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾) فيه تقرير للأمر بالتوكل؛ لأن السميع لكل صوت، والعليم بكل حركة وسكون يحق للعبد أن يتوكل عليه وأن يفوض أموره إليه.

قوله: (**وقوله تعالى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]) هذه

والدليلُ من السُّنَّةِ حديثُ جبْرِيلَ المشهورُ.................

الآية ـ أيضًا ـ فيها دليل على الإحسان، والخطاب للرسول ﷺ، ومعنى ﴿فِي شَأْنٍ﴾؛ أي: وما تكون في عمل من الأعمال يا محمد وما تتلو من كتاب الله تعالى (﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾)؛ أي: أنت وأمتك من عمل (﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾)؛ أي: مشاهدين لكم مراقبين لأعمالكم سامعين لأقوالكم (﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾)؛ أي: تأخذون في ذلك العمل.

قوله: (والدليل من السُّنَّة حديث جبريل المشهور) هذا دليل على ما تقدم من الإسلام والإيمان والإحسان، وهذا الحديث هو حديث يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مشهور على ألسنة بعض العلماء والوعاظ بحديث جبريل عليه السلام؛ لأنه يقوم على أسئلة وجهها جبرائيل عليه السلام إلى النبي ﷺ عندما جاءه على صورة رجل، وهو حديث عظيم جليل القدر، ورد بروايات متعددة وألفاظ مختلفة مع أن القصة واحدة[1].

يقول ابن دقيق العيد رحمه الله في «شرحه على الأربعين النووية»: (هذا حديث عظيم قد اشتمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه، لما تضمنه من جمعه علم السُّنَّة، فهو كالأم للسُّنَّة، كما سميت الفاتحة أم القرآن، لما تضمنته من جمعها معاني القرآن)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨، ٩، ١٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «شرح الأربعين» لابن دقيق العيد ص(١١).

عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَمَا نحن جُلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذْ طَلَعَ علينا رجلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثياب شديدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليهِ أَثَرُ السَّفَرِ ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، ....

قوله: (عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ»). **قوله:** (بينما)، «بين»: ظرف زمان متضمن معنى الشرط، له ثلاث استعمالات، فيستعمل بدون ألف، فيقال: «بين» بباء موحدة، وياء مثناة، ونون، تقول: جلست بين زيدٍ وعمرٍو، ويستعمل بالألف بعد النون فيقول: «بينا»، والاستعمال الثالث بالألف بعد النون بزيادة «ما» فتقول: «بينما»، و«ما» هذه زائدة كافة عن الجر؛ لأن «بين» تجر ما بعدها؛ لأنها تضاف إليه، فإذا دخلت عليها «ما» كفَّتها عن العمل، ولهذا وقع بعدها الضمير «نحن» وهو لا يكون في محل جر.

قوله: (إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب) قال العلماء: يستفاد من هذا استحباب تحسين الهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك، والتعبير **بقوله**: (طلع) فيه إشعار بعظم الرجل.

قوله: (شديد سواد الشعر) عند ابن حبان: «شديد سواد اللحية»[(١)].

قوله: (لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد) هذا متضمن معنى التعجب، فهو غريب عليهم، لكن لا يُرى عليه أثر السفر، وقد نفى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يعرفه أحد الحاضرين، وهذا قد

---

(١) «صحيح ابن حبان» (١/٣٩٠).

حتَى جَلَسَ إلى النَّبِيِّ ﷺ فأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخِذَيْهِ، ....

يُشْكِل في ظاهره، لكن ورد رواية: «فنظر القوم بعضهم إلى بعض فقالوا: ما نعرف هذا...»، فأفادت أن عمر رضي الله عنه حكَمَ بذلك استنادًا لما قاله الحاضرون.

قوله: (حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه) الضمير المجرور في قوله: «فأسند ركبتيه» يعود إلى الرجل، والضمير في قوله: «إلى ركبتيه» يعود إلى الرسول ﷺ، والمعنى: أنه جلس بين يدي النبي ﷺ كما يجلس الإنسان في الصلاة في التشهد أو في الجلوس بين السجدتين، فجلس قريبًا من النبي ﷺ.

قوله: (ووضع كفيه على فخذيه) في قوله: «على فخذيه» احتمال، فإما أن المراد: فخذا نفسه؛ والمعنى: وضع كفيه على فخذَي نفسه، وإما أن المراد: وضع كفيه على فخذَي النبي ﷺ، وكأنه أراد بهذا أن يكون منتبهًا ومصغيًا إلى النبي ﷺ، وقال بعض العلماء: بل يحتمل أنه أراد زيادة التعمية في أمره، وأنه أعرابي وصل إلى هذا الحد من الجفاء، فوضع يديه على فخذي النبي ﷺ، وكثير من الشراح يرجِّحون أن الضمير يعود إلى النبي ﷺ، لما ورد في بعض الروايات كما عند النسائي قال: «ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ»[١]، وهذه تزيل الإشكال، ولو كانت هي الرواية الوحيدة لما صار هناك إشكال، ولا مانع من أن يُردَّ اللفظ المشكل

---

(١) «سنن النسائي» (٨/١٠١).

وقال: يا محمدُ، أَخْبِرني عن الإسلام، ....

إلى لفظٍ يزيل الإشكال، وهذا هو الظاهر ـ إن شاء الله تعالى ـ.

قوله: (وقال: يا محمد) ناداه باسمه مع أن نداءه ﷺ باسمه مخالف لقول الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ أي: لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضًا باسمه، إنما قولوا له: يا رسول الله، أو يا نبي الله، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يمتثلون هذا التعليم من الله عز وجل، فما كان الواحد منهم يقول: يا محمد، إلا إن كان أعرابيًّا قدم من البادية، فلعله قال ذلك مبالغة في التعمية، أو أن الملائكة غير داخلين في هذا النهي، كما قال ابن علان في «شرحه على رياض الصالحين»[(١)]: وقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله»[(٢)].

ثم إن الرواية التي معنا لم يذكر فيها أنه سلَّم، وقد ورد في بعض الروايات كما عند النسائي[(٣)] (أنه سلَّم) فإما أن يكون بعض الرواة لم ينقله. قال الحافظ: «وهذا هو المعتمد» أو أنه لم يسلِّم، وقصد بذلك التعمية، فصنع صنيع الأعراب، لكن من ذَكَرَ السلام مقدم على من سكت عن ذكر السلام؛ لأن هذه زيادة ثابتة فتقبل.

قوله: (أخبرني عن الإسلام) في لفظ الترمذي: «**قال: أخبرني عن الإيمان**»، وورد ـ أيضًا ـ في «الصحيحين» من حديث

(١) «دليل الفالحين» (١/٢١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (١٠).
(٣) انظر: «سنن النسائي» (٨/١٠١).

قال: **أَنْ تَشْهَدَ أَن لا إِلٰهَ إلا اللهُ وَأَنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وتَحُجَّ البيتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**، فقال: صَدَقْتَ، فَعجِبْنَا لَهُ يَسْأَلهُ وَيُصَدِّقُهُ، قال: فأخبرنِي عنِ الإيمانِ، قال: **أن تُؤمِنَ بالله**

أبي هريرة رضي الله عنه أنه بدأ بالإيمان، وفي بعض الروايات أنه سأله عن الإحسان بين الإسلام والإيمان مع أن الحديث الذي معنا، وهو لفظ مسلم ورد فيه الإحسان آخر شيء، وقد أجاب الحافظ رحمه الله عن هذا، فقال: (إن القصة واحدة، والرواة اختلفوا في تأديتها، فبعضهم يقدم وبعضهم يؤخر، وليس في السياق ترتيب)[1].

قوله: (قال: أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا) تقدم الكلام على هذه الأركان.

قوله: (فقال: صدقت، فعجبنا له) معنى عجبنا له؛ أي: عجبنا منه أو عجبنا لأجله.

قوله: (يسأله ويصدِّقه)؛ أي: تعجَّب الصحابة رضي الله عنهم من حاله؛ لأن السؤال يدل على عدم علم السائل، والتصديق يدل على علمه.

قوله: (قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله

---

(١) «فتح الباري» (١/١١٧).

وملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخِرِ وتؤمن بالقَدَر خَيْرِهِ وَشَرِّه، قال: صدقت قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإن لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ، ....

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت) ولم يقل عمر ﵁: «فعجبنا له يسأله ويصدقه» اكتفاءً بما تقدم. وقد أجابه الرسول ﷺ عن الإيمان بأنه: «**أن تؤمن بالله**»، مع أنه ورد في «الصحيحين» من حديث ابن عباس ﵄ في قصة وفد عبد القيس أن النبي ﷺ قال: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس**»[1].

ووجه الإشكال أنه في حديث جبريل فسَّر الإيمان بالاعتقادات الباطنة، وفسَّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وفي هذا الحديث فسَّر الإيمان بما فسَّر به الإسلام.

والجواب: أن نقول: إن حديث عمر ﵁ الذي معنا دليل واضح على التفريق بين الإسلام والإيمان؛ فالإسلام يفسَّر بالأعمال الظاهرة من أقوال اللسان وأعمال الجوارح، وأما الإيمان فإنه يفسَّر بالأعمال الباطنة من اعتقادات القلوب وأعمالها. قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي قصة قوم لوط ﵇ قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧)، (٢٣).

قال: فأخبرنِي عن السَّاعَةِ، قال: **ما المَسْؤولُ عنها بأَعْلَمَ من السَّائِلِ،**..

فإنه فرق بين المؤمنين والمسلمين؛ لأن البيت الذي كان في هذه القرية بيت إسلامي في ظاهره؛ لأنه يشمل امرأة لوط التي خانته في دينها، لأنها كافرة، والإخراج لم يكن لهذا البيت بأكمله، وإنما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]؛ أي: ما نجا من هذا البيت المسلم إلا أهل الإيمان، فهذا يدل على أن هناك فرقًا بين الإيمان والإسلام، وإلا فإن البيت المتحدَّث عنه بيت واحد، لكن وُصِفَ بأنه بيت إسلامي باعتبار، وبأنه بيت مؤمنين باعتبار آخر.

أما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما فإنه لم يذكر إلا قسمًا واحدًا، وهو الإسلام، ولا ريب أن الإسلام عند الإطلاق يشمل الدين كله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فيدخل فيه الإيمان، وكذا إذا ذكر الإيمان مجردًا دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة؛ كقوله في حديث «الشُّعَبِ»: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[(١)]، وقد تقدم الكلام عن الإحسان.

قوله: **(قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)** الساعة بمعنى الوقت أو الزمن الحاضر، والمراد بالساعة هنا: القيامة؛ والمعنى: فأخبرني عن زمن قيام الساعة، فقال

(١) انظر: «الإيمان» ص(٧).

قال: فأخبرني عن أَمارَاتِهَا، ....

النبي ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»؛ أي: ليس المسؤول عن وقتها بأعلم من السائل؛ والمعنى: أنت لا تعلمها وأنا لا أعلمها، وفيه إثبات التساوي في نفي العلم بوقتها؛ أي: إن العلم بها منتفٍ عني وعنك على حد سواء، وليس المراد التساوي في العلم بوقتها، والباء في قوله: «بأعلم» زائدة لإفادة التوكيد؛ لأن علم الساعة من الخمس التي استأثر الله تعالى بعلمها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقد ورد عن النبي ﷺ كما في الحديث الصحيح أنه قال: «**خمس لا يعلمهن إلا الله**» فذكر منها قيام الساعة[١]، وفي بعض الروايات أن الرسول ﷺ تلا هذه الآية في أثناء جوابه للسائل[٢].

قوله: (قال: فأخبرني عن أماراتها) هذا تدرُّج في السؤال؛ يعني: إذا كنت لا تعلم متى وقت قيامها فأخبرني عن أماراتها، والأمارات جمع أمارة وهي العلامة، وقد ورد في بعض الروايات: «**وسأخبرك عن أشراطها**» فأماراتها وأشراطها بمعنى واحد، والمراد بالأمارات التي سيذكر له: الأمارات التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وهي الأشراط الصغرى، وليس العلامات التي تظهر قرب قيام الساعة، وهي الأشراط الكبرى: كطلوع

(١) راجع: «تفسير ابن كثير» (٦/٣٥٤).
(٢) انظر: «فتح الباري» (١/١١٤)، «صحيح مسلم» (١٠).

قال: **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يتطاولُونَ في البُنْيانِ،** ....

الشمس من مغربها، وظهور الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وغير ذلك.

قوله: **(أن تلد الأمة ربتها)** هذه علامة من علامات الساعة، وقد ورد في بعض الروايات: «**بَعْلَهَا**»، ومعنى «ربتها أو بعلها»: سيدها، وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الجملة على أقوال منها: أن هذا إخبار بأن السراري تكثر في آخر الزمان، فيكون ولدها من سيدها بمنزلة سيدها، لا سيما إذا كثرت الأموال وأخذ الولد يتصرف في المال، فيكون هو السيد المطاع، وتكون هذه الأمة قد ولدت سيدها، وقيل: إن الحديث دليل على أن الإماء يلدن الملوك في آخر الزمان، فتكون أم الملك أَمَة، وإذا كانت أُمُّه أمةً وتولى الملك، فإنه سيكون سيدًا لأمه ولغير أمه من أفراد الرعية، والله أعلم.

قوله: **(وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)** هذه علامة أخرى من علامات الساعة، والحفاة: جمع حافٍ، وهو الذي لا نعال عليه، والعراة: جمع عارٍ، وهو الذي لا ثياب عليه، والعالة: جمع عائل، والعائل هو: الفقير، كما في قول الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغنيُّ متى يَعِيْلُ

أي: يفتقر، **وقوله**: «**رعاء الشاء**» بكسر الراء جمع راعٍ، ويجمع أيضًا على رُعاةٍ بضمها، والشاءُ جمع شاة، وهو من الجموع

. . . .

التي يفرق بينها وبين واحدها بالهاء، كشجر وشجرة.

وخصهم بالذكر؛ لأنهم أضعف الرعاة، لكن قد ورد في حديث أبي هريرة في «الصحيحين»: «**رعاة الإبل**»، والمراد: أن أصحاب هذه الأوصاف الأربعة: الحفاة والعراة والعالة ورعاة الشاء «**يتطاولون في البنيان**»، والتطاول في البنيان معناه: تكثير طبقات البنيان، ويصدق ـ أيضًا ـ على توسيع المنازل، وتكثير مجالسها ومرافقها، وهذه ذكرها الرسول ﷺ لمن كانت حالهم أنهم حفاة وعراة... إلخ؛ والمعنى: أن هؤلاء في آخر الزمان يقوى أمرهم وتكون الأموال بأيديهم، وبدل أنهم حفاة عراة لا يملكون غير الشاء يصلون إلى حال التطاول والتفاخر في البنيان، فكل من بنى منهم بناء بدأ يتفاخر على من بنى قبله؛ لأنه أطول منه بناء أو أكبر أو أوسع، فهذا يعتبر من أشراط الساعة، والله المستعان.

وقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في «الصحيحين» قال: «**وإذا رأيت الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها**»[(١)].

ومعنى رؤوس الناس: ملوك الناس، وفي رواية لمسلم: «**وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها**».

قال النووي: (المراد بهم الجهلة السفلة الرَّعَاعُ، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]؛ أي: لما لم ينتفعوا بجوارحهم هذه فكأنهم

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٧٧)، ومسلم (١٠)، (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: فمَضَى، فَلبِثْنا مَلِيًّا، فقال: **يا عمرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائلُ؟** قلت: الله ورسوله أعلمُ، ....

عدموها. هذا هو الصحيح في معنى الحديث، والله أعلم)[١].

قوله: (قال: فمضى، فلبثنا مليًّا) بتشديد الياء التحتية، والملي: هو الزمان، وقد ورد عند الترمذي والنسائي وغيرهما: «**فلبثت ثلاثًا**»[٢].

قوله: (فقال: «يا عمر، أتدري من السائل؟») ظاهره أن الرسول ﷺ لم يخبر عمر رضي الله عنه إلا بعد مدة، لكن ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في «الصحيحين» قال: ثم أدبر فقال: «**ردوه**» فلم يروا شيئًا، فقال: «**هذا جبريل أتى يعلم الناس دينهم**» فهذه الرواية تدل على أن النبي ﷺ أخبرهم في الحال، والظاهر من الرواية التي معنا أن الإخبار خاص بعمر رضي الله عنه حيث قال: (فقال: «**يا عمر**») والظاهر أن عمر رضي الله عنه قام في الحال؛ أي: بعد أن أدبر الرجل، ولم يحضر كلام النبي ﷺ وإنما أخبره النبي ﷺ بعد مدة. وهذا هو الجمع بين الرواية التي معنا، وهي التي تدل على أن إخبارهم كان متراخيًا، ورواية «الصحيحين» من حديث أبي هريرة التي تدل على أن إخبارهم كان في الحال. قاله النووي، قال الحافظ: وهو جمع حسن[٣].

قوله: (قلت: الله ورسوله أعلم)؛ أي: من غيرهما، ولم

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣/٢٧٩).
(٢) «جامع الترمذي» (٢٦١٠)، «سنن النسائي» (٨/٩٧).
(٣) «شرح النووي» (١/٢٧٤)، «فتح الباري» (١/١٢٥).

قال: **هذا جبريلُ أَتاكُمْ يُعَلِّمكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ**».

يقل: أعلما؛ لأن أفعل التفضيل المجرد لا يثنى ولا يجمع، بل يلزم الإفراد، وهذا فيه أدب من آداب العالم، وهو أن من سئل عن شيء لا يعلمه أن يَكِلَ العلم إلى عالمه، ولا يتكلف في الجواب، بل يقول: الله أعلم. أما في حياته ﷺ فإن العلم يمكن أن يؤخذ منه، فيقول المسؤول: الله ورسوله أعلم. لكن بعد وفاته يقول: الله أعلم.

قوله: (قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم) هذا فيه دليل على أن ما ذكر في هذا الحديث هو الدين؛ لأنه اشتمل على أصول الدين وعقائده من الإسلام والإيمان والإحسان. والله أعلم.






الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ

وهو محمدُ بن عبد الله بن عبد المُطَّلِبِ بن هاشمٍ.

قوله: (الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ) هذا هو الأصل الثالث من الأصول الثلاثة التي يجب على العبد معرفتها، وهذا الأصل تأتي معرفته بعد معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد دينه؛ لأنه ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله ﷻ، فالله هو الذي يشرع الشرائع ويُحْكِمُ الأحكام، ولا يمكن تلقي أحكام الشرع إلا عن طريق هذا النبي الكريم ﷺ؛ لأننا لا نستطيع أن نعرف ربنا معرفة تليق بجلاله وعظمته، ولا أن نعرف ديننا إلا بواسطة النبي ﷺ، بل ولا يمكن أن نقوم بعبادة الله تعالى على الوجه المطلوب إلا عن طريق النبي ﷺ، والعبادة لها ركنان: الإخلاص والمتابعة، ولا يمكن للإنسان أن يعبد الله تعالى على علم وبصيرة وتكون عبادته صحيحة مقبولة إلا عن طريق التلقي من النبي ﷺ.

ومعرفة النبي ﷺ تشتمل على أمور كثيرة:

الأمر الأول: معرفة نسبه، وهو **قوله:** (وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم)، وقد اقتصر المصنف على جدين من أجداد النبي ﷺ.

والنبي ﷺ له عدة أسماء، وقد ورد عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يُمحى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب،**

وهاشمٌ من قُرَيْشٍ، وقريشٌ من العربِ، والعَرَبُ من ذريّة إسماعيلَ بن إبراهيمَ الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاةِ والسلامِ.

والعاقب: الذي ليس بعده نبي»[1]، وله أسماء أخرى، وأشهرها: (محمد)، وقد جاء ذكره في القرآن على وجه التنويه، ومعناه: الذي يُحمد أكثر مما يُحمد غيره.

قوله: (وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام) قريش: هو النَّضْرُ بن كنانة، لما ورد عن الأشعث بن قيس ﵁ قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد من كِنْدة لا يرون أني أفضلهم. فقلت: يا رسول الله، إننا نزعم أنك منا، قال: «**نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو أُمَّنا، ولا ننتفي من أبينا**...»[2]، والمقصود بهذا: أن النبي ﷺ بعث في أكرم العرب نسبًا.

وقد ورد عن واثلة بن الأسقع ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤). وانظر: «فتح الباري» (٦/٥٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/١٦٠، ١٦٥)، وابن ماجه (٢٦١٢)، قال ابن كثير: (هذا إسناد جيد قوي، وهو فيصل في هذه المسألة، فلا التفات إلى قول من خالفه، والله أعلم). «البداية والنهاية» (٣/٢٢٢). وقال في «الزوائد» (٢/٣٢٧): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات»، ومعنى: «لا نقفو أمنا»: لا نتهمها ولا نقذفها، وقيل: لا نتبع الأمهات في الانتساب. «حاشية السندي على المسند» (١٣/٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

. . . .

وقال أبو سفيان لهرقل ـ لما سأله: كيف نسبه فيكم؟ ـ قال: هو فينا ذو نسب، قال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها[(١)]؛ أي: في أكرمها نسبًا وأشرفها قبيلة.

قوله: (وهاشم من قريش) هو هاشم بن عبد مناف. قال مؤرِّخوه: اسمه عمرو، وغلب عليه لقبه (هاشم)؛ لأنه أول من هشم الثريد مع اللحم لقومه في مكة في سِنِيِّ المَحْل، وهو أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم، وأحد من انتهت إليه السيادة في الجاهلية[(٢)].

قوله: (وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل)، المراد بالعرب ـ هنا ـ: العرب المستعربة، فإن العرب قسمان:

١ ـ **عرب عاربة**: وهم الذين قبل إسماعيل عليه السلام، ومنهم القحطانيون الذين ينتسبون إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد سكنوا اليمن، ثم تفرقوا في بقية شبه الجزيرة.

٢ ـ **عرب مستعربة**: ويسمَّون (العدنانيين)، وقد نشأوا في مكة، ومنها تفرقوا في جهات كثيرة من الحجاز وتهامة، وينتهي نسبهم إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام، كما تقدم؛ لأنه لما أصهر إلى قبيلة (جُرْهُم) كان من نسله (عدنان) الذي تنتسب إليه العرب المستعربة، سموا بذلك لأنهم تعلموا العربية من العرب العاربة[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) انظر: «طبقات ابن سعد» (١/٧٥)، «الأعلام» للزركلي (٩/٤٨).

(٣) «البداية والنهاية» (١/٢٨٣)، (٣/١٠٠).

وله من العمر ثلاثٌ وستون سنةً، منها أربعون قبلَ النُّبوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبيًّا رسولًا.

قوله: **(والعرب من ذرية إسماعيل)**؛ أي: فيكون النبي ﷺ من أولاد إسماعيل عليه السلام وليس من أولاد (إسحاق)، وأنبياءُ بني إسرائيل كلُّهم من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، و(إسماعيل) وُلِدَ لإبراهيم عليهما السلام من أَمَتِهِ (هاجر) على كِبَرٍ منه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وهو الذي أُمر إبراهيم عليه السلام بذبحه، كما ذكر الله تعالى في القرآن.

قوله: **(وله من العمر ثلاث وستون سنة)** هذا الأمر الثاني: وهو معرفة عمره ومكان ولادته، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين»[(١)]، وأما مولده ﷺ ففي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل[(٢)].

قوله: **(منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًّا رسولًا)** هذا ورد من حديث أنس رضي الله عنه وفيه: «أنزل عليه وهو ابن أربعين»[(٣)]، وإذا كان الرسول ﷺ مات وعمره ثلاث وستون سنة، وثبت في حديث أنس رضي الله عنه أنه بعث على رأس الأربعين، فهذا يدل دلالة قاطعة على أن مدة النبوة والرسالة كانت ثلاثًا وعشرين سنة، وقد ورد في «صحيح البخاري» حديث أنس رضي الله عنه قال: «أُنْزل عليه وهو ابن أربعين، فلبث بمكة عشر سنين يُنزل عليه، وبالمدينة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٦)، ومسلم (٢٣٤٩).
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١/٢٥٩).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٤٧).

نُبِّئَ بِـ (اقْرَأْ)، وأُرْسِلَ بالمُدَّثِرِ.

عشر سنين»[١]، وظاهر هذا أن مدة النبوة والرسالة عشرون سنة، لكن الصحيح أنها ثلاث وعشرون؛ لأنه ورد عن عائشة رضي الله عنها ـ كما تقدم ـ أنه مات عن ثلاث وستين، وورد عن أنس نفسه أن الرسول ﷺ مات وله ثلاث وستون[٢]، وقد يكون قوله: «فلبث في مكة عشر سنين» من باب حذف الكسر[٣].

قوله: (نُبِّئَ بـ(اقْرَأْ)، وأُرسلَ بالمُدثرِ) هذا الأمر الثالث: وهو معرفة حياته النبوية، ومعنى **(نبئ)**؛ أي: خُبِّر؛ لأن أصل النبوة مأخوذة من النبأ وهو الخبر. **قوله: (وأرسل بالمدثر)**؛ أي: بعث؛ لأن الإرسال معناه البعث والتوجيه.

وقوله: بـ (اقرأ)؛ يعني: قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وهذا نزل عليه يوم الاثنين في رمضان وهو في غار حراء[٤].

قوله: (وأرسل بالمدثرِ)؛ أي: بصدر السورة، **وقول المصنف: (نبئ باقرأ، وأرسل بالمدثرِ)** فيه إشارة إلى أن هناك فرقًا بين النبي والرسول، وهذا هو الصحيح المعتمد أن النبي غير الرسول، والرسول غير النبي، وقد تقدم ذلك، ومن الأدلة على هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، والعطف يقتضي المغايرة،

---

(١) رواه البخاري (٣٥٤٧).
(٢) رواه مسلم (٢٣٤٨).
(٣) راجع: «فتح الباري» (٦/٥٧٠)، (٨/١٥٠، ١٥١).
(٤) «البداية والنهاية» (٣/٦).

وبلدهُ مكةُ، وهَاجَرَ إلى المدينةِ ....

وكذلك مجيء **(لا)** في **قوله**: ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ فهذا يدل على أن النبي غير الرسول.

قوله: (وبلده مكة)؛ أي: ولد فيها، ونشأ بها إلا المدة التي أقامها عند مرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية[(١)] في بادية بني سعد، ثم رجع إليها في حضانة جده عبد المطلب، ثم عمه أبي طالب؛ لأن أمه آمنة بنت وهب ماتت وعمره ست سنين، وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة بعد أن أوحي إليه.

قوله: (وهاجر إلى المدينة) الهجرة يأتي الكلام عليها إن شاء الله، والمدينة اسم غالب لمدينة الرسول ﷺ دون غيرها من المدن؛ كالنجم للثريا، وابن عباس لعبد الله دون إخوته من أولاد العباس.

وقد روى أبو موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلِي إلى أنها اليمامة أو هَجَرُ، فإذا هي المدينةُ يَثْرِبُ**»[(٢)].

وكانت هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة ـ فيما يظهر ـ فرارًا من أذى المشركين، وطلبًا للنجاة بالدين، والتماسًا لمكان تنمو فيه الدعوة، وتؤتي ثمارها، حتى يقوى ساعدها ويشتد أزرها؛ وذلك بعد أن تابعته الأنصار على الإسلام، وبايعوه على النصر والمؤازرة.

---

(١) انظر: «الاستيعاب» (١٢/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢)، وقوله: «**وَهَلي**» بفتح الواو والهاء؛ أي: ظني، وقوله: «**فإذا هي المدينة يثرب**» كان ذلك قبل أن يسميها ﷺ طيبة.

بَعَثَهُ اللهُ بالنِّذَارَةِ عن الشِّرْكِ ويَدْعو إلى التوحيدِ: والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، خافوا من انتشار دعوته ومحاربته لهم، فعزموا على قتله، وتشاوروا في صفة ذلك، فخرج رسول الله ﷺ برعاية الله تعالى وحفظه، ومعه أبو بكر رضي الله عنه وتغيبا في غار ثور ـ جبل بأسفل مكة ـ ثم سارا إلى المدينة فوصلاها وفرحت بذلك الأنصار فرحًا عظيمًا، وكل ذلك مدون في السيرة.

قوله: **(بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد)** هذا الأمر الرابع مما يتعلق بمعرفة النبي ﷺ، وهو معرفة ما بُعث به، وهذا أعظمها وأعلاها.

فالنبي ﷺ بعثه الله تعالى ينذر عن الشرك، ويدعو إلى توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والإنذار بمعنى: التحذير. والمنذر: المحذر، وأصل الإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف. والنِّذارة: بالكسر اسم مصدر للفعل أنذر، على ما نقله في «القاموس» عن الإمام الشافعي[(١)].

قوله: **(والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾** [المدثر: ١ ـ ٧]**)**؛ أي: الدليل على أنه ﷺ بعث بالإنذار عن الشرك،

(١) انظر: «تاج العروس» (١٤/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ يُنْذِرُ عن الشرك ويدعو إلى التوحيد،

والدعوة إلى توحيد الله ﷻ، **وقوله تعالى:** (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾) هذه أول آية أرسل بها النبي ﷺ، وقد ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «**فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني؛ فزملوني؛ فأنزل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى ﴿فَٱهْجُرْ﴾» قال أبو سلمة: والرُّجْزَ: الأوثان. ثم حَمِيَ الوحي وتتابع[(١)].

وهذه الآيات قد فسر الشيخ أكثرها إجمالًا، وسأذكر زيادة على ذلك، بعون الله تعالى.

فقوله تعالى: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾)؛ أي: الذي قد تدثر بثيابه؛ أي: تغشى بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك كما تقدم. وأصله: المتدثر، فأُدغمت التاء في الدال لتجانسهما.

(ومعنى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾)؛ أي: انهض فخوف المشركين وحذرهم العذاب إن لم يؤمنوا، وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بقول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١] النبوة.

وقول الشيخ رحمه الله: **(ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد)**

---

(١) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (٢٥٥) (١٦١)، وقوله: «**فَجُئثتُ**» بالثاء المثلثة المكررة بمعنى: فزعت، ويجوز: فجُئثت. بهمزة بعد الجيم ثم ثاء مثلثة ثم تاء؛ والمعنى واحد. انظر: شرح القاضي عياض (١/٤٩)، والنووي (١/٥٦٤).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ عَظِّمْهُ بالتَّوْحِيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أي: طهِّر أعمالَكَ عن الشركِ، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنام، وهَجْرُها تَرْكُها والبراءَةُ منها وأهلِها.

هو معنى ما تقدم، فإن من أشرك مع الله غيره قد عرَّض نفسه للعذاب فهو بحاجة إلى إنذار.

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾)؛ أي: عظِّمه بالتوحيد، وَصِفْهُ بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يقول الكفار.

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾)؛ أي: طهِّر أعمالك عن الشرك، وهذا أحد تفاسير الآية. اقتصر عليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والقول الثاني: أن المراد بها الثياب الملبوسة. أمره الله بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات، وهذا من تمام التطهير للأعمال، خصوصًا في الصلاة، واختار ذلك ابن جرير الطبري، والشوكاني؛ لأن ذلك هو المعنى اللغوي للكلمة. قال ابن كثير: (وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه)[1].

(﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾) قرأ حفص بضم الراء؛ بمعنى: الأصنام والأوثان، وهجرها: تركها والإعراض عنها والبراءة من أهلها، كما قال تعالى عن الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

ويحتمل أن المراد بالرجز: أعمال الشر كلها؛ فيكون أمرًا له

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٢٨٩)، «فتح القدير» (٥/٣٢٤)، «فتح الباري» (٨/٦٧٩).

....

بترك الذنوب صغارها وكبارها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في هذا الشرك فما دونه.

وقرأ الباقون بكسر الراء؛ بمعنى: العذاب[(١)]، والقراءتان بمعنى واحد؛ لأن عبادة الأوثان تؤدي إلى العذاب؛ فأُمر أن يهجر ما يَحُلُّ العذاب بسببه، والله أعلم.

(﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾) بضم الراء على أنه حال؛ أي: ولا تمنُن حال كونك مستكثرًا؛ والمعنى: لا تمنن على ربك بما تقوم به من أعباء كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. قاله الحسن والربيع بن أنس، واختاره ابن جرير، وقيل: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من السلف، واختاره ابن كثير[(٢)].

(﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾)؛ أي: لربك وحده دون سواه فاصبر على كل ما تلقاه في سبيل الدعوة وإبلاغ الرسالة، واصبر ـ أيضًا ـ على طاعة ربك وعن معصيته.

قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله: (فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه وبادر فيه، فأنذر الناس وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلٰهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهَّر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يعبد من دون الله، وما يعبد معه من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس ـ بعد منة الله ـ من غير أن يطلب عليهم بذلك جزاء ولا

(١) «الكشف» لمكي (٢/٣٤٧).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/٢٩٠)، «فتح القدير» (٥/٣٢٤).

أَخَذَ على هٰذا عشرَ سِنينَ يدعو إلى التوحيدِ،

شكورًا، وصبر لربه أكمل صبر: فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين)[(١)].

قوله: (أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد)؛ أي: أخذ رسول الله ﷺ عشر سنين يدعو إلى توحيد الله تعالى، ويبين الشرك ويحذر منه.

وذلك أن المقصود الأعظم من بعثة النبيين وإرسال المرسلين وإنزال الكتب هو الإنذار من الشرك والنهي عنه، والدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وكان النداء الأول لكل رسول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣، والأعراف: ٥٩ و٦٥ و٧٣ و٨٥، وهود: ٥٠ و٦١ وغيرها]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فالتوحيد هو أساس الملة الذي تبنى عليه، وبدونه لا يقوم عمل من الأعمال؛ ولهذا لم تفرض الصلاة التي هي عماد الدين وبقية الشرائع إلا بعد إرساء دعائم التوحيد وبنيان العقيدة، وهذا يدل على أن التوحيد أوجب الواجبات، وأنه يبدأ به قبل غيره، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «**فليكن أول ما تدعوهم**

(١) «تفسير ابن سعدي» (٥/٣٣٢).

وبعدَ العشْرِ عُرِجَ بِهِ إلى السَّماءِ، ....

إليه شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله...» الحديث[(١)].

قوله: (وبعد العشر عرج به إلى السماء). اعلم أن الإسراء والمعراج من الأمور التي ثبتت بطريق الشرع، وليس للعقل فيها مدخل، والجمهور من المحدثين والفقهاء أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه؛ لأن قريشًا أكبرته وأنكرته ولو كان منامًا لم تنكره؛ لأنها لا تُنكر المنامات.

والإسراء لغة: السير بالشخص ليلًا، **وشرعًا**: سير جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

والمعراج لغة: الآلة التي يعرج بها، وهي المصعد، **وشرعًا**: السُّلَّمُ الذي عرج به رسول الله ﷺ من الأرض إلى السماء، وقد ثبت المعراج بالقرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ١ ـ ٣] إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

وخلاصة ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يُسْرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس على البُراق[(٢)]، ثم يعرج به إلى السمٰوات العلى سماءً سماءً، حتى بلغ مكانًا سمع

(١) تقدم تخريجه ص(٢٢).
(٢) بضم الباء: دابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض، يضع خطوه عند أقصى طرفه. «فتح الباري» (٢٠١/٧).

وفُرِضَتْ عليهِ الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكةَ ثلاثَ سنينَ،

فيه صرير الأقلام، وفرض الله عليه الصلوات الخمس ـ كما سيأتي ـ واطلع على الجنة والنار، واتصل بالأنبياء الكرام، وصلى بهم إمامًا، ثم رجع إلى مكة، فحدث الناس بما رأى، فكذبه الكافرون، وصدق به المؤمنون، وتردد فيه آخرون[(١)].

قوله: (وفرضت عليه الصلوات الخمس)؛ أي: فرض الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ وعلى أمته الصلوات الخمس ليلة المعراج خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم لم يزل يختلف بين موسى عليه السلام وربه عز وجل حتى وضعها الرب جلَّ جلاله ـ وله الحمد والمنة ـ إلى خمس، وقال: «**هي خمس، وهن خمسون**»[(٢)].

قوله: (وصلى في مكة ثلاث سنين)؛ أي: فيكون الإسراء قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ﷺ يصلي الرباعية ركعتين حتى هاجر إلى المدينة، وقد دل على ذلك ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر رسول الله ﷺ ففرضت أربعًا، وتركت صلاة السفر على الأولى»[(٣)].

ورواه ابن حبان في «صحيحه»، ولفظه قالت: «فرضت صلاة السفر والحضر ركعتين، فلما أقام رسول الله ﷺ بالمدينة زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة،

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٤/٢٦٩)، «فتح الباري» (١/٤٥٨)، (٧/١٩٦، وما بعدها)، «شرح لمعة الاعتقاد» للشيخ محمد العثيمين ص(٥٩ ـ ٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٣٥)، ومسلم (٦٨٥).

وبعدها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ، والهجرَةُ: الانْتِقَالُ من بلدِ الشركِ إلى بلدِ الإسلامِ، ....

وصلاة المغرب لأنها وتر النهار»[1].

قوله: **(وبعدها)**؛ أي: بعد الثلاث عشرة من بعثته ﷺ؛ لأنه صلى بعد العشر ثلاث سنين بمكة.

قوله: **(أُمِرَ بالهجرة إلى المدينة)**؛ أي: بمفارقة المشركين وأوطانهم ليتمكن ﷺ من إظهار دينه، كما تقدم.

والدليل على أن الهجرة بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين»[2].

قوله: **(والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام)**

الهجرة في اللغة معناها: الترك والخروج من بلد أو أرض إلى أخرى، وشرعًا: كما عرَّفها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهذه هي الهجرة العامة، أما الخاصة فستأتي[3].

ومناسبة ذكر الهجرة مع الأصول الثلاثة لبيان أن الهجرة من أبرز تكاليف الولاء والبراء، على أن هذا ليس على إطلاقه، كما سيأتي ـ إن شاء الله[4] ـ.

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/١٥٧)، وابن حبان (٦/٤٤٧ ـ إحسان). وانظر: «فتح الباري» (١/٤٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٢).

(٣) انظر: «شرح الأصول الثلاثة» للشيخ صالح آل الشيخ ص(٢١١).

(٤) انظر: «الولاء والبراء في الإسلام» ص(٢٨١)، «الغلو في الدين» ص(٥١٣).

....

وقد اختلف العلماء في ضابط بلاد الكفر وبلاد الإسلام، والأظهر ـ والله أعلم ـ أن بلاد الإسلام ما ظهرت فيها أحكام الإسلام، وبلاد الكفر ما غلب عليها الكفر، وذلك لأن الأحكام هي المميزة للبلد إسلامًا وكفرًا، فإذا اجتمع في بلدٍ قدرٌ معين من أحكام الإسلام فهي دار إسلام وإلا فلا. وهل هذه الأحكام هي أعمال الإمام ـ وهو السلطان السياسي ـ أو أعمال الناس من إقامة الصلاة والجُمع والأعياد؟ قولان.

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد مجموع الأمرين، وأنه لا بد أن تظهر الأحكام الإسلامية وخصوصًا الصلاة، وأن تكون جزءًا من عمل الإمام، فإن لم تظهر الأحكام الإسلامية لا سيما الصلاة، فالبلد بلد كفر.

وهذا لا يعني أن يكون حكم البلد منطبقًا على الأفراد الذين يعيشون داخله؛ لأن هذا حكم الدار. أما حكم أهلها فكل إنسان يعامل بحسبه ـ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ لا سيما في زماننا هذا؛ لأن ظهور الكفر في كثير من البلاد ليس باختيار أهلها، بل له أسباب عديدة، أهمها: تسلط الحكومات. وعلى هذا فإذا قيل: البلد بلد كفر، فإن هذا لا يعني أن جميع من فيه كفار؛ لأن الإقامة في دار الكفر ليست سببًا في إكفار المقيم على الإطلاق(١).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/٢٣٨ ـ ٢٣٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٤٠ ـ ٢٤١)، «شرح الأصول الثلاثة» للشيخ ابن عثيمين ص(١٣٠)، والشيخ صالح آل الشيخ ص(٢٠٨)، «الغلو في الدين» ص(٣٠٦، ٣٣٠، ٣٤٢).

والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعةُ.

قوله: **(والهجرة فريضة على هذه الأمة من الشرك إلى بلد الإسلام)** بيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا وجوب الهجرة العامة وأنها فريضة، وهذا دلت عليه النصوص من الكتاب والسُّنَّة، وأجمع المسلمون على ذلك؛ لما فيها من حفظ الدين ومفارقة المشركين، فإن المؤمن الذي يعبد ربه، ويخلص في عبادته، ويبغض الشرك وأهله، ويعاديهم ويقاطعهم لن يتركه أهل الكفر على دينه مع القدرة عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

قوله: **(وهي باقية إلى أن تقوم الساعة)**؛ أي: إن الهجرة العامة وهي الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة غير منسوخة، وقد ورد عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يَفِرُّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية[١].

قال الحافظ ابن حجر: (أشارت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا إلى بيان مشروعية الهجرة، وأن سببها خوف الفتنة، والحكم يدور مع علته، فمقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت)[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٠).

(٢) «فتح الباري» (٧/٢٢٩).

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أحوال البلاد كأحوال العباد، فيكون الرجل تارة مسلمًا، وتارة كافرًا، وتارة مؤمنًا، وتارة منافقًا، وتارة برًّا تقيًّا، وتارة فاسقًا، وتارة فاجرًا شقيًّا، وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باق إلى يوم القيامة)(١)، وأما قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا هجرة بعد الفتح**»(٢)، فالمقصود به الهجرة الخاصة، وأنه لا هجرة من مكة بعد فتحها؛ لأنها صارت دار إسلام، وفيه إشارة إلى أنها لا ترجع دار كفر إلى قيام الساعة، وكل بلد يفتح ويكون بلد إسلام، فإن الهجرة لا تجب منه.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩]**)** هذه الآيات دليل على وجوب الهجرة،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/٢٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٧)، ومسلم (١٨٦٤).

. . . .

والمستفاد من كلام أهل العلم كابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره أن الهجرة من بلد الكفر ثلاثة أضرب، والناس ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من تجب عليه الهجرة، وهو القادر عليها مع عدم القدرة على إظهار دينه، وهذا يدل عليه **قوله تعالى**: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾) **ووجه الدلالة**: أن الله جلَّ وعلا وصفهم بأنهم ظالمون لأنفسهم، فمن بقي في بلد الشرك وهو قادر على الهجرة ولا يقدر على إظهار دينه فهو ظالم لنفسه، مرتكب حرامًا بالإجماع.

الصنف الثاني: من لا هجرة عليه، وهو العاجز عن الهجرة، إما لمرض أو إكراه على الإقامة، أو ضعف من النساء والولدان وشبههم، فهؤلاء لا هجرة عليهم؛ لأن الله جلَّ وعلا قال: (﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾) وعليه أن يعتزل الكفار ما استطاع ويظهر دينه ويصبر على أذاهم.

الصنف الثالث: من تستحب له الهجرة ولا تجب عليه كما تجب على الصنف الأول، وهذا في حق من يقدر على الهجرة، لكنه متمكن من إظهار دينه، فهذا يستحب له الهجرة، لأجل أن يتمكن من جهاد الكفار وتكثير المسلمين والتخلص من الكفار ومخالطتهم، فهذه ثلاثة أصناف هي أصناف الناس بالنسبة للهجرة[1].

---

(١) انظر: «المغني» (١٣/١٥١)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٤٠)، و«فتح الباري» (٦/١٩٠).

....

أما الآية التي ساقها المصنف فمعناها بإيجاز (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾) المراد بالملائكة: إما ملك الموت وأعوانه، وإما ملك الموت وحده[1]، **وقوله**: (﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾) هذا دليل على وجوب الهجرة، كما تقدم؛ والمعنى: أنهم ظالمون لأنفسهم بتركهم الهجرة. (﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾) هذا استفهام توبيخ وتقريع لهم؛ والمعنى: في أيِّ فريق كنتم؟ (﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾)؛ يعني: عاجزين لا نستطيع الخروج (﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾)؛ يعني: بإمكانكم أن تخرجوا إلى أرض الله الواسعة، والمراد بها في ذلك الزمن: المدينة. (﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾) هذا وعيد يدل على أن القادر على الهجرة الذي لا يتمكن من إظهار دينه ولم يهاجر أنه قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه لا يتوعد بمثل هذا الوعيد إلا على ترك أمر واجب ـ وهو الهجرة ـ فتركها كبيرة من كبائر الذنوب، **قال تعالى**: (﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾) هؤلاء هم الذين لا يستطيعون الخروج (﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾)؛ يعني: لا يقدرون على حيلة، لا على خروج، ولا على نفقة، ولا على من يهيئ أمرهم (﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾)؛ يعني: لا يعرفون الطريق، ولا يستطيعون أن يسيروا وحدهم. **قال تعالى**: (﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾)؛ أي: عسى الله أن يتجاوز عنهم، وهم المعذورون بتركهم الهجرة، والآية دليل على وجوب الهجرة وعلى آكديتها.

(١) انظر: «روح المعاني» (٥/ ١٢٥).

. . . .

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع وبنصِّ هذه الآية. . .)[١].

فلا بد من شرطين: القدرة على الهجرة، وعدم التمكن من إظهار الدين، فمن لم يفعل فهو ظالم لنفسه. يقول الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (اسْتُدِلَّ بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على من كان بدار الشرك أو بدار يُعمل فيها بمعاصي الله جهارًا ولم يكن من المستضعفين)[٢].

وإذا كان الإنسان مأمورًا بالهجرة من بلاد الكفر دلَّ هذا على أن الأصل تحريم السفر إلى بلاد الكفر، إضافة إلى ما ورد من النصوص في هذا الموضوع ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ، لكن لو وجد حاجة تدعو إلى السفر إلى بلاد الكفر أو الإقامة فيها، كطلب علم لا يوجد في بلده، أو لعلاج، أو للدعوة، فإن هذا يجوز نظرًا للمصلحة المترتبة على هذه الإقامة؛ لأن الأصل هو عدم السفر، ويفهم من كلام العلماء أنه لا يجوز السفر لبلاد الكفر إلا **بثلاثة شروط**:

الشرط الأول: أن يكون عنده علم يمنعه مما يرد عليه من الشبهات التي قد تعرض له في تلك البلاد، فإن لم يكن عنده علم فهو على خطر عظيم، فقد ينحرف في عقيدته وينخدع بما هم عليه، فلا بد أن يكون المسافر على علم يمنعه مما يرد عليه من الشبهات والإشكالات.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٤٣).
(٢) «فتح القدير» (١/٥٠٥).

....

الشرط الثاني: أن يكون عنده دين يمنعه مما يرد عليه من الشهوات؛ لأن تلك البلاد بلاد مغرية، بلاد الشهوات واللذات التي تقف على قدم وساق، دون تفريق بين ما أحل الله وما حرم الله، والذي لا دين عنده يمنعه من الوقوع في هذه المحرمات يكون عرضة للانحراف ومجاراة القوم فيما هم عليه من الذنوب والمعاصي غائبًا عن باله عاقبة الأمر.

ومن وسائل السلامة ـ بإذن الله تعالى ـ أن يكون المسافر متزوجًا، وأن تكون زوجته معه، ليعف نفسه ويتحصن من الحرام، إذا كان يريد الإقامة للدعوة أو للدراسة مثلًا.

الشرط الثالث: أن يتمكن من إظهار دينه والقيام بعبادة ربه كما أمر الله جلَّ وعلا، وعليه أن يحذر كل الحذر من موالاة المشركين؛ لأن موالاتهم ـ كما مرَّ معنا ـ تنافي الإيمان[(١)].

أما السفر لبلاد الكفر لمجرد السياحة فالقول بالمنع أظهر؛ لأن الله تعالى أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد، وفرض عليه عداوة المشركين فما كان ذريعة وسببًا إلى إسقاط ذلك فإنه لا يجوز[(٢)]، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنا بريء ممن يقيم بين أظهر المشركين، لا تراءى نارهما**»[(٣)]؛ ومعنى: «**لا تراءى نارهما**»؛

(١) انظر: «شرح الأصول الثلاثة» لابن عثيمين ص(١٣٣).

(٢) انظر: «الجامع الفريد» ص(٣٨٢)، «مجموعة رسائل الشيخ حمد بن عتيق» ص(٤٩) حيث قسم المقيمين في دار الحرب إلى ثلاثة أقسام.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه. =

. . . .

أي: لا ترى نار المسلم نار المشرك، ولا نار المشرك نار المسلم، وهذا كناية عن القرب، والعرب تستعمل مثل هذا الأسلوب، تقول: داري تنظر إلى داره، وداره تنظر إلى داري، إذا أرادوا شدة القرب.

فمن سافر لمجرد السياحة فهو على خطر عظيم، من وجوه:

أولًا: أنه خالف النصوص على وجوب الهجرة وتحريم السفر، ومنها حديث سمرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله**»[1].

ثانيًا: فقد الغيرة عنده ـ وهذا شيء ملاحظ ـ فإن الإنسان ـ وإن كان عنده غيرة ـ إذا أقام في بلد تكثر فيه المعاصي؛ فإن غيرته تضعف أو تموت بالكلية، ويصبح مجاريًا لهم فيما هم عليه، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن مشاركة الكفار في الهدي الظاهر

= لكنه أعلَّ بالإرسال. قال أبو داود والترمذي: «وقد رواه جماعة ولم يذكروا جريرًا». وأخرجه النسائي (٨/٣٦) عن قيس بن أبي حازم مرسلًا ولم يذكر جريرًا. قال الترمذي: (سمعت محمدًا ـ يعني: البخاري ـ يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل). وانظر: «العلل» لابن أبي حاتم (رقم ٩٤٢) وللدارقطني (١٣/٤٦٤).

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٨٧)، وإسناده ضعيف؛ لأنه من طريق سليمان بن موسى قال: أخبرنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب: حدّثني خبيب بن سليمان عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سمرة. وسليمان بن سمرة قال الحافظ: مقبول. وابنه خبيب: مجهول، وجعفر بن سعد: ليس بالقوي، وسليمان بن موسى: فيه لين. ورواه الطبراني في «الكبير» (٧/٢٦٣)، والحاكم (٢/١٤١ ـ ١٤٢)، وفيه راوٍ متروك، لكن يشهد له ما تقدم، وكذا ما أخرجه النسائي (٥/٨٢)، وابن ماجه (٢٥٣٦)، وأحمد (٣٣/٢٣٦) من طريق بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: «... **كل مسلم على مسلم محرم، أخوان نصيران، لا يقبل الله ﷻ من مشرك أشرك بعدما أسلم عملًا أو يفارق المشركين إلى المسلمين**»، وهذا سند حسن. وانظر: «منحة العلَّام» (٩/١٨).

وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾.

قال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سببُ نُزُولِ هذه الآية.....................

توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين. هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحًا محضًا لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم، فإنه يكون شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالهم ومعاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يُتفطن له[(١)].

ثالثًا: أن هذه الأسفار لا تسلم غالبًا من بذل المال الذي قد يصل في الغالب إلى حدٍّ الإسراف في المصاريف المالية، وهذا فيه إنعاش لاقتصادهم وتقوية لهم.

رابعًا: شعور الإنسان الذي يقيم عندهم بأنه واحدٌ منهم، له ما لهم، وعليه ما عليهم. أضف إلى هذا أن أهله من النساء والأطفال ـ إن كانوا معه ـ يتأثرون بأخلاق أهل تلك البلاد؛ لأن المرأة والطفل والشاب أسرع تأثرًا وأكثر إعجابًا بما عليه الآخرون، مع ما يترتب على سفر نسائه معه من تصوير المرأة الذي تساهل فيه كثير من الناس في هذا الزمان، والله المستعان!

قوله: (وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. **قال البغوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **سبب نزول هذه الآية**

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٨٢/١).

في المسلمين الذين في مَكَّةَ لم يُهاجِرُوا، ناداهم الله باسم الإيمانِ.

في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان) هذا دليل على أن الذي يترك الهجرة ليس بكافر؛ لأن الله تعالى **قال**: (﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾)، ولو كانوا كفارًا ما ناداهم باسم الإيمان، وقد تقدم في كلام العلماء كابن كثير والشوكاني أن تارك الهجرة يعتبر عاصيًا ظالمًا لنفسه، وكلام البغوي هذا لخصه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما حكاه البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن جماعة من السلف[1].

والبغوي: هو الإمام الحافظ الفقيه أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، نسبة إلى بلدة بَغْشُور ويقال لها: بَغَا بين هَرَاةَ ومرو الرَّوذ، على غير قياس. قال ابن كثير: (برع في العلوم، وكان علّامة زمانه فيها، وكان دينًا ورعًا زاهدًا عابدًا صالحًا). له مؤلفات منها: تفسيره «معالم التنزيل»، و«شرح السُّنَّة»، وغيرهما، مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٥١٦هـ[2].

وقوله تعالى: (﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾)؛ أي: آمنوا بي وبرسولي ولقائي، وأضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفًا وتكريمًا (﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾)؛ أي: فإن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان، فاخرجوا؛ فإن أرضي واسعة (﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾) لا تعبدوا معي غيري، كما يريد منكم المشركون.

ففي الآية أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي

---

(١) «تفسير البغوي» (٣/٣٧٢).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٤٣٩)، «البداية والنهاية» (١٢/١٩٣)، «معجم البلدان» (١/٤٦٧).

والدليل على الهجرةِ من السُّنَّةِ قوله ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرةُ حتى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، ولا تنقطع التوبةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مَغْرِبِها».

لا يقدرون فيه على إقامة الدين، وأنه لا عذر لأحد في ترك عبادة الله وتوحيده فيها؛ لأنه إن مُنع منها في بلد وجب عليه أن يهاجر إلى بلد آخر[(١)].

قوله: (والدليل على الهجرة من السُّنَّة قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»).

معنى انقطاع التوبة: عدم قبولها، وإلا فقد توجد التوبة، ولكنها لا تقبل إذا طلعت الشمس من مغربها؛ لأن هذا أوان قيام الساعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ...﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والحديث الذي ذكره المصنف مروي عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[(٢)].

وعن عبد الله بن السعدي أن النبي ﷺ قال: «**لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يُقاتَل**»، فقال معاوية وعبد الرحمٰن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: إن النبي ﷺ قال: «**إن الهجرة خصلتان، إحداهما: أن تهجر السيئات، والأخرى: أن تهاجر إلى الله ورسوله،**

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/٢٩٩)، «أيسر التفاسير» (٣/٤٦٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨/٦٧)، وأحمد (٢٨/١١١)، والبيهقي (٩/١٧)، وغيرهم، من طريق أبي هند البجلي، عن معاوية. وهذا سند ضعيف، لجهالة أبي هند، لكنه متابع، كما في الحديث الذي يليه.

فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام مثل الزَّكاةِ، والصومِ، والحجِّ، والجهاد، والأذانِ، والأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المُنْكَرِ، وغير ذٰلِكَ من شرائع الإسلام.

ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها أو من المغرب، فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلب بما فيه وكُفِيَ الناسُ العملَ»(١).

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام)** ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ما تمَّ من الشرائع بعد استقرار النبي ﷺ بالمدينة، وقد ذكر فيما تقدم الهجرة إلى المدينة، وإنما بدأ بأحكام الهجرة وأدلتها؛ لأنها من أبرز تكاليف الولاء والبراء، والأمرُ بالشرائع جاء بعد بناء العقيدة؛ لأن التوحيد أساس الأعمال؛ ولهذا استمرت الدعوة في مكة في موضوع بناء العقيدة، ولم تأت الشرائع والتكاليف إلا بعد الهجرة إلى المدينة إلا الصلاة، فإنها لعظمها شرعت في مكة، كما ذكر المصنف، فصلى النبي ﷺ قبل أن يهاجر ثلاث سنين.

قوله: (أمر ببقية شرائع الإسلام مثل: الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأذان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام) ظاهر كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة؛ لأنه ذكر الزكاة مع الصوم

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٠٦)، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٩/٢٦٢ ـ ٢٦٣): «هذا إسناد جيد قوي». وانظر: «الإرواء» (٥/٣٣، ٣٤).

. . . .

والحج والجهاد والأذان، وهي لم تشرع إلا في المدينة.

وقد ورد آيات مكية ذكرت فيها الزكاة، وفي بعضها الأمر بالزكاة، كما في قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [١٤١]، وفي سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [٢٤، ٢٥]، وفي سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [٤]، فهذه الآيات وغيرها من الآيات المكية ورد فيها ذكر الزكاة، ثم جاءت آيات مدنية ذكرت فيها أيضًا الزكاة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير آية سورة (المؤمنون)، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾: (الأكثرون على أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأموال)[١]. وقال بعض أهل العلم: إن الزكاة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ المراد بها: تزكية النفوس وتطهيرها من الرذائل، وعلى رأسها الشرك.

ولا منافاة بين الآيات المكية والمدنية في موضوع الزكاة، فإنها فرضت في مكة وبينت أنصبتها في المدينة، فالزكاة التي كانت في مكة لم تكن مقدرة بأنصبة معينة، إنما كان مرجعها إلى ذاتية الشخص، فقد يجود بالكثير، وقد يجود بالقليل، وهذا ـ والله أعلم ـ؛ لأن الإسلام لم يقم له في مكة دولة، فلم يكن هناك معنى لأن تفرض مقادير معينة للزكاة، لكن في المدينة لما قامت الدولة،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/٤٥٧).

. . . .

وشرعت الشرائع جاءت أنصبة الزكاة على لسان الرسول ﷺ[١]، ولهذا فالرسول ﷺ وهو في مكة لم يتحدث عن أنصبة الزكاة ولا بيّن مقاديرها، وعلى هذا فكلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا في **قوله**: **(الزكاة)** يريد ذات الأنصبة والمقادير، والله أعلم.

قوله: **(والصوم، والحج)** فرض الصوم في السنة الثانية من الهجرة[٢]، والحج فرض على أرجح الأقوال في السنة التاسعة من الهجرة[٣].

قوله: **(والجهاد)** هو مصدر جاهد يجاهد جهادًا؛ إذا بالغ في قتل العدو وغيره، ومادة: (جهد) حيث وجدت فيها معنى المبالغة. قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٧٨]، والمراد هنا: قتال الكفار خاصة.

والجهاد فرض بعد الهجرة، كما ذكر المصنف، وقبلها لم يأذن الله للمسلمين بالجهاد في مكة ولا فرضه عليهم؛ لأنهم عاجزون ضعفاء ليس لهم شوكة يتمكنون بها من القتال، فلما هاجروا إلى المدينة وقامت الدولة الإسلامية أمروا بالجهاد، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩١].

---

(١) المصدر السابق، «فقه الزكاة» للقرضاوي (٥٨/١).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٢٥٤/٣)، «المجموع شرح المهذب» (٢٥٠/٦).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (١٠١/٢).

....

قوله: (والأذان)؛ أي: إن الأذان شرع في المدينة في السنة الأولى من الهجرة على القول الراجح، وقد ورد أدلة تدل على أن الأذان شرع في مكة قبل الهجرة. لكنها أحاديث معلولة، كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد جزم ابن المنذر رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه ﷺ كان يصلي في مكة بغير أذان منذ فرضت الصلاة إلى أن هاجر إلى المدينة[(١)].

قوله: (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، المعروف: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه، والمنكر: ضد ذلك. قال الراغب: (المعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر ما ينكر بهما)[(٢)]. قال الشوكاني: (والدليل على كون ذلك الشيء معروفًا أو منكرًا هو الكتاب والسُّنَّة)[(٣)].

وإنما خصه الشيخ ـ والله أعلم ـ دون غيره من بقية الشرائع؛ لأنه باب عظيم، دلَّ على وجوبه الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة، وهو وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وسمة من سمات الإيمان، وحق من حقوق المسلم على أخيه، والأدلة على ذلك معلومة من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

يقول الإمام النووي المتوفى سنة (٦٧٦هـ): (اعلم أن هذا

(١) انظر: «الأوسط» (١١/٣)، «زاد المعاد» (٦٩/٣)، «فتح الباري» (٧٨/٢، ٧٩).
(٢) «المفردات في غريب القرآن» ص(٣٣١). وانظر: «النهاية» لابن الأثير (٢١٦/٣).
(٣) «إرشاد الفحول» ص(٧١).

أَخَذَ على هذا عشرَ سنينَ، وبعدها تُوُفِّيَ، صلوات اللهِ وسلامه عليه، ....

الباب ـ أعني: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ قد ضُيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبقَ منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًّا، وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عَمَّ العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله ﷻ أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعه عظيم، لا سيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته، ولا يهابَنَّ من ينكر عليه؛ لارتفاع مرتبته؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]...)[1].

قوله: (أخذ على هذا عشر سنين)؛ يعني: أخذ على تبليغ الشريعة وبيانها في المدينة وغيرها عشر سنين، وقد تقدم هذا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما[2].

قوله: (وبعدها توفي، صلوات الله وسلامه عليه) قال ابن كثير رحمه الله: (لا خلاف أنه ﷺ توفي يوم الاثنين، والمشهور أنه

(١) «شرح صحيح مسلم» (٢/٢٤).
(٢) انظر: ص(١٨٠).

ودِينُهُ باقٍ، وهذا دينُه: لا خَيْرَ إلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عليه، ولا شَرَّ إلَّا حَذَّرَها منه، والخيرُ الذي دَلَّ عليهِ «التوحيدُ» وجميعُ ما يُحِبُّهُ الله ويرضاه، والشَّرُّ الذي حَذَّرَ منه «الشركُ» وجميعُ ما يَكرهه الله ويأباه.

في الثاني عشر من ربيع الأول)[(١)].

قوله: **(ودينه باق)**؛ أي: لأنه دين عام إلى يوم القيامة للبشرية كلها، بينما الأديان السابقة كانت مؤقتة بأوقات معينة انتهت بنهايتها، ولما كان الإسلام دينًا عامًّا لجميع البشرية وجب الإيمان بالرسول ﷺ على جميع الثقلين الجن والإنس من اليهود والنصارى وغيرهم ـ كما سيأتي ـ؛ ولهذا تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه وحفظ القرآن الكريم، وقد دخل التحريف التوراة والإنجيل، والكتب الأخرى لا وجود لها. أما القرآن فإنه منذ أنزل إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة وهو باق، لن تمتد إليه يد بتحريف ولا عبث؛ لأن الله تعالى تكفل بحفظه. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قوله رحمه الله: **(وهذا دينه: لا خير إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه، والخير الذي دلَّ عليه «التوحيد» وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر منه «الشرك» وجميع ما يكرهه الله ويأباه)** هذا كلام رصين ودقيق قلّ أن تجده في مكان آخر.

وقد ورد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكّرنا منه علمًا، قال: فقال

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٨/١٠٤).

بعَثهُ الله إلى النَّاس كافة، وافْتَرَضَ طاعتَه على..........

رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة، ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم**»[(١)].

وعن المطلب بن حنطب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت شيئًا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، ولا تركت شيئًا مما نهاكم عنه إلا وقد نهيتكم عنه...**»[(٢)].

قوله: (بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض الله طاعته على

---

(١) أخرجه البزار (٩/٣٤١)، وابن حبان (١/٢٦٧)، والطبراني في «الكبير» (٢/١٥٥) عن سفيان، عن فِطْر، عن أبي الطفيل، عن أبي ذر رضي الله عنه، واللفظ بهذا التمام للطبراني، والحديث أخرجه أحمد (٣٥/٣٤٦) عن الأعمش، عن منذر الثوري، عن أبي ذر رضي الله عنه مرسلًا. قال الدارقطني في «العلل» (٦/٢٩٠): «وهو الصحيح» وفي سنده انقطاع، وجاء أيضًا من طريق الأعمش عن منذر الثوري عن أشياخ لهم، عن أبي ذر رضي الله عنه. أخرجه أحمد (٣٥/٢٩٠، ٣٤٦)، والطيالسي (١/٣٨٥) وقد ذكر الألباني في «الصحيحة» (٤/١٧٧، ٦١٠)، أن أصحاب المنذر لا يضر عدم تسميتهم؛ لأنهم جمع من التابعين، فتنجبر جهالتهم بكثرتهم، كما نبه على ذلك الحافظ السخاوي، والحديث في سنده اضطراب، لكن له ما يؤيده من حديث سلمان رضي الله عنه قال: قال لنا المشركون: إني أرى صاحبكم يعلمكم، حتى يعلمكم الخراءة. فقال: أجل... الحديث، وفي رواية: قد علمكم كل شيء حتى الخراءة. رواه مسلم (٢٦٢)، والخراءة: بالكسر أدب التخلي.

(٢) رواه الشافعي كما في «الرسالة» (رقم ٢٨٩)، (٣٠٦)، ومن طريقه البيهقي (٧/٧٦) عن عبد العزيز الدراوردي، ورواه البغوي في «شرح السُّنَّة» (١٤/٣٠٢ ـ ٣٠٣) من طريق علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، كلاهما عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن المطلب أن رسول الله ﷺ قال: ... وذكر الحديث.

وهذا الحديث رجاله ثقات، لكنه مرسل، كما ذكر البيهقي (٣/٣٥٦) لأن المطلب تابعي، ولم يدرك أحدًا من أصحاب النبي ﷺ إلا القليل. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٨/٨١) والحديث له شواهد. تجدها مع كلام طويل مفيد عن الحديث للشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «الرسالة» ص(٩٣ ـ ١٠٣).

جميع الثقليْنِ، الجنِّ والإنْسِ، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ....

جميع الثقلين الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]).

هذه الآية دليل ظاهر على عموم رسالة النبي ﷺ؛ لأن الخطاب فيها للناس، وهو لفظ شامل للعرب والعجم، وفي سورة «الرحمٰن» وسورة «الجن» دليل واضح على عموم رسالته ﷺ إلى الجن والإنس. وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[(١)].

وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «... **كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة**»[(٢)] ولا معارضة بين هذا وبين ما سيأتي ـ إن شاء الله ـ من أن نوحًا عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض، وذلك لأن سكان الأرض زمن نوح عليه السلام كانوا قومه خاصة؛ لأنه لم يكن في الأرض عند إرساله إلا قومه، وهي عامة في الصورة؛ لعدم وجود غيرهم. فرسالته كانت لسكان الأرض من البشر فقط، وقد انتهت بانتهاء زمانه، وأما رسالة نبينا محمد ﷺ فهي لجميع العالمين، فهي رسالة عامة إلى يوم القيامة[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠) (١٥٣).
(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).
(٣) انظر: «دراسات في النبوة والرسالة» ص(١٩٩).

وأَكَمَل اللهُ به الدينَ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

قوله: (وأكمل الله به الدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]) إكمال الدين حصل بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة العلمية والعملية، فليس في هذا الدين ـ ولله الحمد ـ زيادة لمستزيد، فلا نقص يستدعي الإكمال، ولا قصور يستدعي الإضافة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذانًا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب، ولا خلل ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار)[١].

وقد ورد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا من اليهود قال: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة[٢].

وقوله تعالى: (﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾)؛ أي:

---

(١) «مفتاح السعادة» (٣٠٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

والدليل على موتِهِ ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾.

بهذا الدين، وبهذا المنهج الشامل الكامل تمت نعمة الله ﷻ على هذه الأمة، وتأمل كيف أضاف الله تعالى الدين إلى العباد؛ إذ هم القائمون به، المقيمون له، وأضاف النعمة إليه؛ إذ هو موليها والمنعم بها، وكان بعض السلف الصالح يقول: (يا له من دين لو أن له رجالًا)[1]، **وقوله سبحانه**: (﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾) هذا حَثٌّ من الله ﷻ لهذه الأمة لتدرك قيمة هذا الدين، ثم تحرص على الاستقامة عليه، فمن لا يرتضي هذا الدين منهجًا لحياته يسير عليه في كل صغيرة وكبيرة، فإنه يرفض ما اختاره الله تعالى، وكفى بهذا قبحًا وشناعة أن يرفض هذا العبد الضعيف ما اختاره الله تعالى ورضيه، وهذه الآية دليل واضح على رعاية الله وعنايته بهذه الأمة، حيث اختار لها دينها وارتضاه وأحبه ﷻ.

ومن الأدلة على إكمال الدين حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك**»[2].

قوله: (**والدليل على موته ﷺ قوله تعالى**: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]).

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٣٠٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٢٨/٣٦٧)، والحاكم (١/٩٦)، قال الألباني: (هذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات معروفون، غير عبد الرحمٰن بن عمرو، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات»، وروى عن جماعة من الثقات، وصحح له الترمذي وابن حبان والحاكم كما في «التهذيب». انظر: «الصحيحة» (رقم٩٣٧)، «السُّنَّة» لابن أبي عاصم (١/١٩).

. . . .

أي: والدليل من النقل المطابق للحسّ على موته ﷺ **قوله تعالى**: (﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾)؛ أي: إنك يا محمد ستموت وتُنقل من هذه الدار لا محالة، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وقوله تعالى: (﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾)؛ أي: سيموتون، ويُنقلون من هذه الدار لا محالة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، **وقوله تعالى**: (﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾)؛ أي: يوم القيامة في ساحة فصل القضاء تختصمون إلى الله تعالى، وتحتكمون إليه فيما تنازعتم فيه؛ فيفصل بينكم بحكمه العادل.

والآية شاملة لكل متنازعين في الدنيا من المؤمنين والكافرين، فإنها تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. دلَّ على ذلك حديث الزبير رضي الله عنه قال: لما نزلت: (﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾) قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: «**نعم**»، فقال: إن الأمر إذًا لشديد[(١)].

وهذه الآية التي ساقها الشيخ رحمه الله هي إحدى الآيات التي استشهد بها الصدِّيق رضي الله عنه عند موت النبي ﷺ، حتى تحقق الناس موته مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤][(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٦)، وأحمد (٣/ ٢٤، ٤٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، ثم ساق الإسناد نفسه في حديث آخر (٣٣٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن»، وهذا هو الصواب؛ لأن في سند الحديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص، وهو صدوق حسن الحديث. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٨٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٨٧)، و«فتح الباري» (٨/ ١٤٦)، و«البداية والنهاية» (٨/ ٧٢).

والناسُ إذا ماتُوا يُبْعَثُونَ، والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، ....

قوله: (والناس إذا ماتوا يبعثون) قصد بهذا رَحِمَهُ اللَّهُ بيان وجوب الإيمان بالبعث، وأن الإيمان به من جملة الإيمان باليوم الآخر وما فيه، والبعث معناه: إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية.

فيقوم الناس لرب العالمين حفاةً لا نعال عليهم. عراةً لا كسوة لهم، غرلًا لا ختان فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والبعث حق ثابت، دل عليه الكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين، وهو مقتضى الحكمة، حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة ميعادًا يجازيهم فيه على ما شرعه لهم، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[(١)] [المؤمنون: ١١٥]، وقد تقدم بيان ذلك في أول الرسالة.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]) هذه الآية دليل على البعث، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يخرج الموتى من هذه الأرض، وذلك في **قوله**: (﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾)، ومن الأدلة أيضًا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**»[(٢)]، والحشر معناه: الجمع؛ يعني: جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم.

---

(١) «نبذة في العقيدة الإسلامية» للشيخ محمد العثيمين ص(٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٥)، ومسلم (٢٨٥٩).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾.

وبعد البعثِ مُحَاسَبُونَ..................................

قوله: (وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧])؛ أي: مبدأ الخلق خلق آدم عليه الصلاة والسلام من الأرض، والناس ولد لآدم، **وقوله**: (﴿نَبَاتٗا﴾) اسم مصدر نائب مناب المصدر؛ أي: إنباتًا. (﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾)؛ يعني: يعيدكم في الأرض إذا متم ودفنتم بها (﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾) للحساب والجزاء.

قوله: (وبعد البعث محاسبون) ذكر المصنف أمرًا آخر يجب الإيمان به يتعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بالحساب والجزاء، والمراد بالحساب: إيقاف الله تعالى العباد على أعمالهم التي عملوها وما كانوا عليه في الدنيا، ومشهد الحساب مشهد عظيم، ينبغي لكل مسلم أن يستحضره، قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٩، ٧٠]، وحسبنا أن نعلم أن القاضي والمحاسب في هذا اليوم العظيم هو الحكم العدل قيوم السماوات والأرضين.

والحساب عام لجميع الناس، إلا من استثناهم النبي ﷺ كما جاء في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب(١).

(١) رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

. . . .

وصفة الحساب أن الله تعالى يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة. وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من تُوزن حسناته وسيئاته؛ لأنه لا حسنات لهم، وإنما تُعد أعمالهم وتحصى، فَيُوقفون عليها، ويُجزون بها.

والحكمة ـ والله أعلم ـ من حساب الكفار، مع أنه لا حسنات لهم:

أولًا: إقامة الحجة عليهم وإظهار عدل الله ﷻ فيهم.

ثانيًا: محاسبة الكفار فيها توبيخ وتقريع لهم.

ثالثًا: لأن الكفار على أرجح الأقوال مخاطبون بالأوامر والنواهي، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية، وتقدم ذلك.

رابعًا: لأن الكفار يتفاوتون في الكفر، والنار دَرَكات.

ومما يدل على أن الكفار محاسبون قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، فهذا يدل على أنهم محاسبون ومسؤولون، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣ ـ ١٠٥]، فقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون(١).

---

(١) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» عند الحديث (٢٨٠٨)، «مجموع الفتاوى» (١٤٦/٣)، (٣٠٥/٤)، «فتح الباري» (١٤٥/٩).

ومجزِيُّونَ بأعمالِهِمْ، والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾، ومن كَذَّبَ بالبعثِ كَفَر، ....

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١])؛ أي: والدليل على ثبوت الحساب: هذه الآية العظيمة، التي تدل على أن الله تعالى لا يظلم أحدًا، فيجزي الذين أساؤوا بإساءتهم، وأما الذين عملوا الحسنى فهؤلاء جزاؤهم الحسنى، فلما أحسنوا العمل أحسن الله مثوبتهم وجزاءهم، فهذه الآية من الآيات الدالة على ثبوت الحساب، والآيات التي بمعناها كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، ومن النصوص ـ أيضًا ـ ما ورد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**من حُوسب عُذِّب**» فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] فقال: «**إنما ذَلِك العَرْضُ، ولكن من نوقش الحساب يهلك**»[(١)].

قوله: (ومن كذب بالبعث كفر)؛ أي: لأنه مكذِّب لله ورسوله حيث إن القرآن دلَّ في آيات كثيرة على ثبوت البعث، فالذي يكذب بالبعث مكذِّب للقرآن، ومن كذَّب القرآن فهو مكذِّب لله تعالى؛ فيُحكم بكفره، ومكذِّبٌ ـ أيضًا ـ للنبي ﷺ؛ لأن النصوص ثبتت عن الرسول ﷺ بوقوع البعث، ثم هو ـ أيضًا ـ مخالف لإجماع المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾.

قوله: (**والدليل قوله تعالى:** ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧])؛ أي: الدليل على أن التكذيب بالبعث كفر **قوله تعالى**: (﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ...﴾) **ووجه الدلالة** أن الله تعالى كفّرهم بإنكارهم البعث، وسمى مقالتهم زعمًا؛ فدل ذلك على أن من أنكره فهو كافر، وإنما زعموا أنهم لن يبعثوا؛ لأنهم قالوا: إن البعث غير ممكن، كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السجدة: ١٠]، ومعنى: ﴿ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ضاعت أجسامنا وعظامنا، واختلطت بالأرض وصارت رفاتًا. ولا ريب أن إنكار الكفار للبعث دليل واضح على عدم إيمانهم القادم بتوحيد الربوبية، وإلا لو آمنوا به كما ينبغي لآمنوا بالبعث، لدخوله في عموم قدرة الله تعالى على كل شيء.

وهم يزعمون أن الله تعالى لا يقدر على بعثهم بعد هذا، كما قال تعالى عن بعض كفار قريش: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، وقد جاء إلى النبي ﷺ بعظم وفتّه في وجهه ونفخه، وقال: أتزعم يا محمد أن الله يحيي هذا بعد ما أرمّ؛ يعني: بعدما فني فصار ترابًا ـ قال: «**نعم، ويدخلك النار**»[(١)] فهذه هي شبهة الكفار، فإنهم يقولون: إن الله تعالى غير قادر على أن يحييها ويعيدها مرة أخرى وهي على هذه الحال، وقد

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥٧٩/٦).

. . . .

جاء في القرآن الكريم ذكر البعث في آيات كثيرة، وتنوعت الأساليب في موضوع الإقناع بالبعث، وقد جاء في القرآن براهين عقلية تدل على وقوع البعث، **وخلاصة الأدلة على وقوع البعث كما يلي:**

الدليل الأول: إخبار العليم الخبير بوقوع يوم القيامة، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وجاء هذا الإخبار في القرآن الكريم بأساليب متنوعة، ليكون أوقع في النفوس وأقرب إلى القبول.

الدليل الثاني: أن القادر على الخلق الأول قادر على الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧]، وقد استقر في أفهام الناس وتصورهم أن الإعادة أهون من البدء، فإذا كنتم تعترفون أن الله قد خلقكم ابتداء فلماذا تنكرون الإعادة؟ مع أن الإعادة في نظركم أهون، والبدء والإعادة عند الله تعالى سواء، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]؛ يعني: أهون عليه في نظركم، فلماذا تنكرونه؟ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**قال الله تعالى: كذبني بن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله**

. . . .

ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أُولد، ولم يكن لي كفوًا أحد»[(١)].

الدليل الثالث: أن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الدليل الرابع: قدرة الله جلَّ وعلا على تحويل الخلق من حال إلى حال، فهو يحيي ويميت، ويخلق ويفني، وهذه الأرض تكون هامدة لا نبات فيها فينزل الله المطر، فإذا هي خضراء تهتز، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] فتجد أن القرآن يشير إلى هذا المعنى في كثير من الآيات، وهو أن القادر على تحويل الشيء من حال إلى حال قادر على بعث الناس.

وفي الآية التي ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي **قوله تعالى**: (﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾) دليل على وقوع البعث كما تقدم، ودليل على الحساب في **قوله**: (﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾)؛ والمعنى: أن بعث الخليقة من قبورهم ومحاسبتهم سهل هيِّن عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

....

وهذه الآية هي إحدى الآيات الثلاث في القرآن التي أمر الله فيها نبيَّه ﷺ أن يقسم للمشركين بربه جلَّ وعلا على وقوع البعث، وليس بعد قسم النبي ﷺ بربه توكيد، والآية الثانية في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [٥٣]، والآية الثالثة في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [٣].



وأَرسلَ اللهُ جميعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ.

والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾. وأَوَّلُهُمْ نوحٌ عليه السلام، وآخِرُهُمْ محمدٌ ﷺ، خاتَمُ النَّبِيِّينَ، والدليل على أنّ......................

قوله: (وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين) هذه حكمة من الحِكَم العظيمة لإرسال الرسل إلى البشر (مبشرين ومنذرين)، والتبشير معناه: ذكر الجزاء والثواب لمن أطاع. والإنذار: تخويف العاصي والكافر من سخط الله تعالى وعقابه، وقد يأتي التبشير أحيانًا في العذاب، كما في قول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١، والتوبة: ٣٤، والانشقاق: ٢٤]، والأصل أنه يطلق على ما فيه خير، والإنذار على ما فيه من شر.

قوله رحمه الله: (والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥])، هذه الآية دليل على وظيفة من وظائف الرسل، وهي: أنهم يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

وفيها دليل على أنه لم يبق للخلق على الله حجة بعد الرسل؛ لأنهم بيَّنوا للناس أمر دينهم، ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فلم يبق لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

قوله: (وأولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ، والدليل على أن

أَوَّلَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾.

أولهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]) استدل العلماء بهذه الآية على أن أول الرسل نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ووجه الاستدلال مأخوذ من البَعْدية في **قوله تعالى**: (﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾)، ولو كان هناك رسول قبل نوح لذكر.

أما من السُّنَّة فهو ما ورد في الحديث الصحيح في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلبون منه الشفاعة؛ فيقول لهم: «**ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله، فيأتون نوحًا، فيقولون له: أنت أول رسول أرسلك الله إلى أهل الأرض**»(١)، وهذا من أقوى الأدلة على أن نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أول الرسل، فإن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصفه بأنه أول رسول بعثه الله.

وأما آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمتفق على نبوته، وإنما الخلاف في رسالته، فمن قال إنه رسول يقول: لا منافاة بين رسالته ورسالة نوح؛ لأن رسالة آدم كانت إلى زوجته وبنيه فقط، فهي لأناس محصورين، ولم يكن في الأرض آنذاك أهل غيرهم، وأما نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن رسالته كانت إلى أهل الأرض. أو إن رسالة آدم كانت إلى بنيه وهم موحِّدون ليعلِّمَهم شريعته، ونوح كانت رسالته إلى قوم كفار يدعوهم إلى التوحيد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو في «الصحيحين» أيضًا من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

. . . .

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن آدم ﷺ ليس برسول مبعوث إلى أحد، ولم يرد في القرآن ما يدل على رسالته، وهو قد وصف نوحًا ﷺ ـ كما تقدم ـ بأنه أول رسول بعثه الله، وأهل المحشر ذكروا صفات آدم ﷺ ولم يقولوا: أنت أول رسول(١).

وقد ذكر بعض المؤرخين أن إدريس ﷺ جَدٌّ لنوح ﷺ، وإذا كان جدًّا لنوح فتكون رسالته متقدمة، وقال آخرون: إنه ليس جدًّا لنوح، وإنما هو من أنبياء بني إسرائيل، وفي حديث المعراج ما يدل على أن إدريس من أنبياء بني إسرائيل وأن رسالته متأخرة، وذلك أن الرسول ﷺ لما مرّ على إدريس في السماء الرابعة وسلَّم عليه، قال له إدريس: أهلًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. قالوا: ولو كان جدًّا لنوح لقال للنبي ﷺ: الابن الصالح.

وإن كان الحافظ ابن حجر قال: إن هذا لا يلزم؛ لأنه قد يكون قاله من باب التواضع(٢)، لكن على أي حال يصلح أن يُتمسَّك به، وخلاصة المسألة أنه لم تثبت الأولية بأدلة قوية إلا لنوح عليه الصلاة والسلام، والله أعلم.

والمصنف ساق الدليل على أولية نوح ﷺ، وترك الدليل على أن محمدًا ﷺ آخرهم، وذلك ـ والله أعلم ـ لوضوحه، وهو قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) انظر: «شرح مسلم للنووي» (٣/٥٧)، «فتح الباري» (٦/٣٧٢)، (١١/٤٣٣ ـ ٤٣٤)، «دراسات في النبوة والرسالة» ص(١٧٥).

(٢) «فتح الباري» (٦/٣٧٣).

وكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إليهِمْ رسولًا من نوحٍ إلى محمدٍ ﷺ يأْمُرُهُم بعبادة الله وحدهُ، وينهاهُم عن عبادةِ الطاغوتِ.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وافترض اللهُ على جميع العبادِ الكُفْرَ بالطَّاغُوتِ والإيمانَ باللهِ..........................

قوله: (وكل أمة بعث الله إليها رسولًا من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت)؛ يعني: يأمرهم بالتوحيد؛ لأن التوحيد يجمع أمرين:

الأول: عبادة الله وحده.

الثاني: النهي عن عبادة الطاغوت، فكل أمة من الأمم السابقة بعث الله إليها رسولًا يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة ما سواه، فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله تعالى فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، ولا يصح من الإنسان عمل إلا بالبراءة من عبادة كل ما يعبد من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]) معنى (﴿بَعَثْنَا﴾)؛ أي: أرسلنا. (﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾)؛ أي: في كل طائفة وقرن وجيل من الناس، وهذه الآية دليل واضح على أن الرسالة عمت كل أمة وأن دين الأنبياء واحد، كما أن الآية دليل على عظم شأن التوحيد، وأنه واجب على جميع الأمم، وقد افترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله؛ لأن توحيد العبد لا يتم إلا بذلك.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: الطَّاغُوتُ ما تَجَاوَزَ بِهِ العبدُ حَدَّهُ مِنْ معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ.

قوله: (قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع) هذا تعريف الطاغوت، وهذا الكلام ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «إعلام الموقعين»[1]، وقد عرَّف ابن القيم الطاغوت أحسن تعريف، والطاغوت في الأصل مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فكل من يتجاوز الحد الذي يُحد له يعتبر في اللغة طاغوتًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وكلمة طاغوت من أبنية المبالغة مثل الجبروت والملكوت.

أما تعريفه المقصود فكما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (كل ما تجاوز به العبد حده)؛ أي: تعدَّى به العبد قدره الذي ينبغي له في الشرع فهو طاغوت، **(من معبود)**؛ يعني: سواء كان هذا التعدي بكون هذا الإنسان عُبد من دون الله، فصار معبودًا، فمن صُرف له شيء من أنواع العبادة وهو مقر بذلك وراض به فإنه طاغوت؛ لأنه تجاوز حدَّه وقدره في الشرع؛ لأن حده في الشرع أن يكون عبدًا لله تعالى، لا أن يكون معبودًا، فإذا رضي أن يكون معبودًا فقد تجاوز حده، **(أو متبوع)** هذا يدخل فيه الكهان والسَّحَرة الذين يُتبَعون فيما يقولون. كما يدخل في هذا علماء السوء الذين يدعون إلى الكفر أو إلى الضلال أو إلى البدع أو يزينون للحكام الخروج عن شريعة

---

(١) (٥٠/١).

والطَّواغيتُ كَثِيْرونَ[١]، ورؤوسهم خمسةٌ: إِبْليسُ لعنه الله،

الإسلام والاستعاضة عنها بالقوانين الوضعية، فهؤلاء كل واحد منهم يصدق عليه أنه طاغوت؛ لأنه تجاوز حده، وهذا التجاوز في كونه متبوعًا يشرع، (أو مطاع) هذا يدخل فيه الحكام والأمراء الخارجون عن طاعة الله تعالى، الذين يحرِّمون ما أحلَّ الله، أو يحلُّون ما حرَّم الله، فهم بهذا المعنى طواغيت؛ لأنهم تجاوزوا حدَّهم بكونهم هيَّأوا أنفسهم؛ لأن يطاعوا في غير طاعة الله تعالى. هذا معنى التعريف الذي ذكره ابن القيم.

قول المصنف: (والطواغيت كثيرون)؛ يعني: باعتبار التعريف الذي ذكره ابن القيم، فإنه يتبين منه أن الطواغيت كثيرون؛ لأن كل من عُبد أو اتبع أو أُطيع فيصدق عليه أنه طاغوت، وهؤلاء كثيرون، ولكن رؤوسهم بالتتبع والاستقراء خمسة، وما عدا هذه الخمسة فهو متفرع عنها.

قوله: (ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله)؛ أي: زعماؤهم وأئمتهم (خمسة) الأول: (إبليس لعنه الله)؛ أي: طرده الله وأبعده عن رحمته؛ وذلك لأنه الداعي إلى عبادة غير الله تعالى فهو أول الطواغيت. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، والمراد بعبادة الشيطان: طاعته؛ فيدخل في ذلك جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له.

وإبليس (إفعيل) مشتق من الإبلاس، وهو الإياسُ من الخيرِ

---

(١) هكذا في بعض النسخ، وجاء في بعضها: «كثيرة».

ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ، ومَنْ دعا الناس إلى عبادة نفسِهِ، ومَنِ ادَّعَى شيئًا من علم الغيبِ، ....

والندمُ والحزنُ، وعلى هذا فمنعه من الصرف لشذوذه وقلة نظائره، فكأنه بذلك أشبه الاسم الأعجمي. وقيل: إنه غير مشتق، ووزنه فِعْليل، ومنعه للعلمية والعجمة[1].

قوله: (ومن عُبد وهو راضٍ) هذا الثاني، والمعنى: من علم أن الناس يعبدونه ويتوسَّلون به ويصرفون له شيئًا من أنواع العبادة فرضي بهذه العبادة فهو طاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] سواء عُبد في حياته أو بعد مماته، إذا مات وهو راضٍ بذلك.

وقوله: (وهو راضٍ) قيد لا بد منه، لإخراج من عبد من دون الله تعالى وهو غير راضٍ بذلك، فلا يدخل في هذا المسمَّى، مثل: عيسى وأمه والملائكة عليهم السلام[2].

قوله: (ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه) هذا الثالث، وهو الذي يدعو الناس إلى عبادته وتعظيمه، وهذا ينطبق على بعض مشايخ الضلال من الصوفية والرافضة وغيرهم الذين يقرُّون بالغلو، ويفرحون بتعظيم الناس لهم.

قوله: (ومن ادَّعى شيئًا من علم الغيب) هذا الرابع، وذلك كالمنجِّمين والعرَّافين والرمَّالين الذين يدَّعون شيئًا من علم الغيب،

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢٧/١)، «المحرر الوجيز» (١٧٩/١)، «روح المعاني» (٢٢٩/١).

(٢) «شرح الأصول الثلاثة» للشيخ صالح الفوزان ص(٣٠١).

ومَنْ حكَمَ بغيرِ ما أَنْزَلَ اللهُ.

والله جلَّ وعلا يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فعلم الغيب لا يكون إلا لله تعالى، إلا من شاء الله تعالى من أنبيائه ورسله أن يطلعه على شيء من علم الغيب.

قوله: (ومن حكم بغير ما أنزل الله) الخامس؛ لأن الله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي الآية الثالثة: ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وهل هذه أوصاف متعددة لموصوف واحد؟ أو أنها لموصوفين مختلفين؟

من أهل العلم من قال: إنها أوصاف لموصوف واحد؛ يعني: أن الحاكم بغير ما أنزل الله على أي حال يعتبر كافرًا ظالمًا فاسقًا باعتبارات مختلفة.

فالحكم بغير ما أنزل الله باعتبار أنه جحود للشريعة يكون كفرًا، وباعتبار أنه مجاوزة لحق الإنسان واعتداء على حق الله تعالى في التشريع يكون ظلمًا؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن حيث إنه خروج عن شرع الله تعالى يكون فسقًا؛ لأن الفسق معناه: الخروج، ولا مانع أن هذه الأوصاف تنطبق على ذات واحدة؛ لأن الله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ يعني: الكافر يوصف بأنه ظالم، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] فوُصِفُوا مع الكفر

والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾......................

بالفسق، فقد يكون الشخص كافرًا ظالمًا فاسقًا؛ لأن الله تعالى وصف الكافرين بالظلم ووصفهم بالفسق.

ومن العلماء من قال: إن هذه الأوصاف تتنزل على موصوفين، بحسب الحامل لهم على الحكم بغير ما أنزل الله، فإذا حكم بغير ما أنزل الله معتقدًا أن حكمه أصلح أو أنه مثل حكم الله تعالى فهذا كافر كفرًا يخرج من الملة، وإن حكم بغير ما أنزل الله معتقدًا أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام وأنفعها، ولكنه تركه لعداوة بينه وبين المحكوم عليه فهذا ظالم.

أما إذا حكم بغير ما أنزل الله وهو يعتقد أن حكم الله أنفع وأصلح وأن غيره لا خير فيه، ولكنه حكم من أجل مجاراةٍ للمحكوم له أو من أجل رشوة أو نحو ذلك فهذا يكون فاسقًا، فعلى هذا القول تنزل الأوصاف على حسب الحامل لهذا الحاكم[1].

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]) ساق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل على أن الله تعالى افترض على العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

أما تعريف الطاغوت وذكر الطواغيت فإن المصنف لم يستدل عليه هنا، وقد استدل عليه في رسائل أخرى[2]؛ ومعنى: (﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾)؛ أي: لظهور أدلة الدين وبراهينه، فلا يُكره إنسان على أن يعتنق

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٢٦٦)، ورسالة «تحكيم القوانين» للشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «القول المفيد» (٢/٢٦٦).

(٢) انظر: «مجموعة التوحيد» الرسالة السابعة ص(٢٦٠).

قَدْ تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

الإسلام، وإنما يعتنقه الإنسان بإرادته واختياره، ولا منافاة بين هذه الآية والآيات الدالة على وجوب القتال والجهاد؛ لأن هذه الأدلة مراد بها إزالة العوائق في وجه الإسلام، فإذا وقف أناس في وجه الإسلام أو قوة وقفت في وجه الإسلام، فإنه يشرع القتال، ويجبُ في هذه الحالة لإزالة هذه العوائق، لكن لا يُلزم الإنسان بأن يعتنق الإسلام.

وهذه الآية فيها خلاف بين المفسرين، فمنهم من ذهب إلى أنها منسوخة بآيات القتال، وضعّف هذا المحققون كابن جرير وابن العربي والشوكاني وغيرهم[(١)]، ومنهم من قال: إن هذه الآية محكمة، وأنها خاصة باليهود والنصارى والمجوس. أما الوثنيون فإنهم يُكرهون على الإسلام، ويلزمون بالدخول فيه، وهو اختيار ابن جرير وجمع من المحققين، وعلى أي حال فالإنسان يعتنق الإسلام بإرادته واختياره وظهور تعاليمه وأدلته وبراهينه، وأما ما جاء في آيات القتال والجهاد فهذا لا ينافي الآية، بل كل من وقف في وجه الإسلام من شخص أو من قوة فإنه يقاتل. أما أنه يلزم ويكره على اعتناق الإسلام فقد يعتنقه في الظاهر ولا يعتنقه في الباطن فيكون منافقًا.

وقوله تعالى: (﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾)؛ الرشد: هو الهدى الموصل إلى سعادة الدارين؛ والغي: الضلال المفضي بالعبد إلى الشقاء والخسران.

وقوله تعالى: (﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٤٠٧/٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢٣٣/١)، «فتح القدير» (٢٧٥/١).

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

وهذا معنى لا إلٰهَ إلا الله، ....

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾) هذا هو معنى التوحيد؛ لأن التوحيد ـ كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لا بد فيه من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وهذا أول ما فرض على ابن آدم.

وصفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها، وتبغضها وتكفّر أهلها وتعاديهم.

ومعنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإلٰه المعبود وحده دون من سواه، وتخلص له جميع أنواع العبادة، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم[١]، ولهذا **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهذا معنى لا إله إلا الله)**؛ أي: إن هذه الآية متضمنة للنفي والإثبات، فتثبت جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له، وتنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى، وقد تقدم بيان ذلك.

وقوله: (فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾)؛ أي: تمسك، واستمسك أبلغ من تمسك. قال الراغب: استمسكت بالشيء: إذا تحريت الإمساك[٢].

وقوله: (﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾) العروة في الأصل: موضع شد اليد، والوثقى: تأنيث الأوثق. يقال: رجل أوثق وامرأة وثقى، والوثقى؛ أي: القوية التي لا تنفك؛ والمعنى ـ والله أعلم ـ فقد استمسك بالعقد المحكم الذي لا ينفك ولا ينفصم، وفيه بيان أن الذي يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله أنه قد أخذ بالطريق إلى الجنة؛ لأنه استمسك بالعروة الوثقى.

---

(١) انظر: «مجموعة التوحيد» (الرسالة السابعة) ص(٢٦٠).

(٢) «المفردات في غريب القرآن» ص(٤٦٨).

وفي الحديث: «رأسُ الأَمرِ: الإسلامُ، وعَمُودُهُ: الصلاةُ»، ...

قوله: **(وفي الحديث: «رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة»)** أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الحديث الاستدلال على أن لكل شيء رأسًا، وأن رأس الأمر الذي جاء به محمد ﷺ هو الإسلام.

وقد جاء تفسيره في رواية أخرى بالشهادتين فمن لم يقرَّ بهما باطنًا وظاهرًا فليس من الإسلام في شيء[١].

وقوله: **(«وعموده الصلاة»)**؛ أي: قوام الدين الذي لا يقوم الدين إلا به كما يقوم الفسطاط على عموده هو الصلاة، وهذا دليل بيِّن على عِظَمِ شأن الصلاة وأنها من الدين بهذا المكان العظيم، وأن مكانها من الدين مكان العمود من الفُسطاط ـ وهو بيت من شعر ـ فهو قائم ما وجد العمود، ولو سُحب العمود منه ما نفعت الأطناب وسقط البيت على الأرض.

وفي هذا دليل على أن الذي يترك الصلاة لم يبق له دين؛ ولذلك استدل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم الذين يقولون بأن تارك الصلاة كسلًا كافر بهذا الحديث، **ووجه الاستدلال** أنه أخبر أن الصلاة من الإسلام بمنزلة العمود الذي تقوم عليه الخيمة، فكما تسقط الخيمة بسقوط عمودها، فكذا يذهب الإسلام بذهاب الصلاة[٢].

وليس في الحديث تعرّض لكونه معترِفًا بها أو جاحدًا لوجوبها. بل هو ظاهر في الترك مطلقًا، والله أعلم.

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» شرح الحديث (٢٩).

(٢) انظر: «كتاب الصلاة» لابن القيم ص(٤٧، ٤٨).

وذُرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ».

واللهُ أعلم، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلَّم.

قوله: («وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»)، الذروة: بكسر الذال وضمها وفتحها، وذروة الشيء أعلاه، وذروة البعير سنامه وهو أعلى شيء فيه، وهذا الحديث يدل على أن الجهاد هو أعلى شيء في الدين؛ لأن الجهاد فيه بذل للنفس التي هي أغلى وأثمن شيء عند الإنسان.

وما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هو جزء من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث طويل أوله: «قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: **لقد سألت عن عظيم**...» الحديث[(١)].

قوله: (والله أعلم) ختم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالة المفيدة كغيره بردِّ العلم إلى الله تعالى المحيط بكل شيء علمًا.

قوله: (وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلَّم) جملة (صلَّى): خبرية لفظًا، إنشائية معنًى؛ لأن الشيخ لا يريد مجرَّد الإخبار بأن الله صلَّى على محمد، وإنما يريد الدعاء؛ فالمعنى: اللَّهمَّ صلِّ... والصلاة من الله تعالى على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى؛ أي: عند الملائكة المقرَّبين؛ كما قال ذلك أبو العالية، ورواه البخاري في «صحيحه»[(٢)]، وهذا أحسن ما قيل في معنى ذلك.

وقوله: (وآله) آل: أصله: أهل، بدليل تصغيره على أُهيل،

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٢٩٧٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه أحمد من طرق. وانظر كلام ابن رجب عليه [الحديث التاسع والعشرون].

(٢) انظر: «فتح الباري» (٨/٥٣٢)، «فضل الصلاة على النبي ﷺ» للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي ص(٨٢).

....

وقيل: إنه من آل يؤول: إذا رجع، ولا يستعمل إلا فيما شَرُفَ غالبًا، والآل هم من تحرُم عليهم الصدقة، أو ذرية النبي ﷺ وأزواجه خاصة، أو أتباعه على دينه، وضعَّف هذا ابن القيم(١).

وقوله: (**وصحبه**) اسم جمع، مثل: ركب، بمعنى أنه اسم مفرد واقع على الجمع، وليس جمعًا؛ لأنه خالف أوزان الجمع المعروفة، وقيل: إنه جمع صاحب، على غير قياس مثل: ركب وراكب(٢).

والمراد بصحبه: أصحابه، وهم كل من اجتمع بالنبي ﷺ مؤمنًا ومات على ذلك.

قوله: (**وسلَّم**) معطوف على **قوله:** (**وصلَّى الله**)، وهي خبرية لفظًا إنشائية معنى؛ أي: اللَّهمَّ سلِّمه؛ أي: من النقائص والرذائل والآفات، وفي الجمع بينهما سِرٌّ بديع، ففي الصلاة حصول المطلوب وهو الثناء عليه، وفي السلام: زوال المرهوب(٣).

وإلى هنا انتهى ما يَسَّرَ الله كتابته على هذه النبذة المفيدة، نسأل الله تعالى أن يكتب الأجر لمؤلِّفها ومَنْ شَرَحها وقرأها عاملًا بما فيها من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٤٦٠)، «جلاء الأفهام» ص(٢٣٦ ـ ٢٥٢).
(٢) انظر: «الإعراب عن نظم قواعد الإعراب» لراقمه ص(٢٥).
(٣) انظر: «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد العثيمين (٤٦/١).

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة